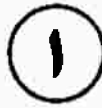


اللسان المر

عبد الوهاب الأسواني



زغردة طويلة جاءت من أول النجع . . تساءلت النساء ، ولفظ
الصغار ، ورفع الرجال فثوسهم ولم ينزلوها ، ثم انتشر الخبر :
- شيخ العرب وصل !

رأت الجموع المحتشدة على الشاطئ المركب الشراعى يحايل الريح في
متصف النيل ! في مقدمته رجل أسمر ، شديد السمرة ، على رأسه عمامتان من
« البفتة » كل عمامة تزيد على خمسة أمتار !

لوحث له الأيدي ، وزغردت النساء ، وهتف الأطفال باسمه ، وأطلق
أحدهم ثلاث رصاصات من مسدسه للتحية .

جبل عال متموج على الشاطئ الآخر ، سفحه أخضر ، وقته بيضاء ،
برزت في أحضانه مدخنة صغيرة كأنها تتحدها !

رما المركب ، وقفز الرجل إلى الشاطئ في رشاقة . . قصير القامة ، عريض
الصدر ، عيناه ضيقتان حادثان . . أحاطت به الجموع ، تعانقه ، تقبل
وجهه ، تتعلق بعباءته السوداء ، تمسك بجلاييه الصوفية الثلاثة التي يرتديها
واحدة فوق أخرى نحمد الله على وصوله .

تصاعدت الزغاريد من كل بيت مرأماه الموكب ، إلى أن توقف أمام مبنى
من الطوب الأسمر ، تتقدمه ثلاثة أعمدة حمراء وفناء واسع مكشوف .
جاءت من المركب حقائب كثيرة وصناديق كبيرة من الورق المقوى . .

وضعت على « بروش » من السعف ، ثم فتحت ، فظهرت قطع القماش الملونة .
تناول الرجل قطعة قماش صفراء وأعطائها رجلاً بجواره :

- ثوب لزوجتك يابن العم .

- أكثر الله خيرك يا شيخ العرب .

أمسك بقطعة بيضاء وأخرى حمراء ، وأعطائها شاباً في السابعة عشرة :

- قميص لك ، وجلالية لأختك يابن المرحوم .

وتولت الهدايا ، وتوالى الوافدون ، كل ينتظر دوره . وفرغت الحقائق

أوكادت ، وبدأ في فتح الصناديق الورقية .

- ثلاث صابونات لأولادك ياخاله . . باكو شاي لك يابن أخى . . علبة

سجائر لك يا عم .

كان القماش من نصيب أهله الأقربين ، والصابون والشاي لبقية فروع

القبيلة .

انتقلت العيون من الحقائق ، وتسلمت على وجه خمري شديد النعومة

بتوسطه أنف دقيق ، وشفتان على شكل القلب .

فتح ذراعيه وهتف بصوت حنون :

- أهلاً « بتول » . . أهلاً بالوجه المبارك !

دار عليها بذراعيه وضمها إلى صدره . . وقالت له امرأة طويلة ، بارزة

عظام الوجه ، تضم تحت إبطها ثوباً أصفر :

- ربنا يحفظك لنا يازينة قبيلتنا .

أحس بنهدى الفتاة المتمردتين في صدره ، فسرت في جسده رعدة ! أمسك

بذقنها الناعم ، وقبلها في خدها . . نسي نفسه وطالت القبلة أكثر مما يجب !

فأطلقها بعصية ، وتناول قطعتي قماش وقال لها :

- واحدة لك ، وواحدة لأملك يا بنت الأخ .

افتر ثغر الفتاة عن أسنان جميلة شدت أنظار الواقفين . . استدارت ، لتخرج فتبعنها الأنظار . . شالها القטיפه الأحمر المآكل الأطراف يسدل على قامة سمهرية وساقين برونزيتين ممتلئتين ، وقدمين كبيرتين حافيتين . حينما توارت عن الأنظار عادت إلى الواقفين عقولهم ، فأنجحت أنظارهم إلى الحقائق ! ظهر الحزن على وجه الرجل . . سمرة تحولت إلى سواد حينما اكفهر وجهه . . احمرت عيناه ، وقال لنفسه : أنت رجل ناقص ، شاب ذقنك ولم يشب عيك ! تضم بنتاً من سن أولادك ! تعصرها على صدرك ، تضايق خدها الناعم بشعر ذقنك الثابت ، ثم تزعم أنك أصيل النسب ، وأن جدك الأكبر كان من أصحاب رسول الله ! . ثم هاج فجأة وقال للواقفين :

- اخرجوا من « ديوانى » يا أسوأ قبيلة فى البلد ، يا « زبالة » العرب ،

يا غنم !

خرج أكثر الواقفين ! بعضهم خرج ساخطاً ، وبعضهم طأطأ رأسه وسار فى صمت ، وبضعة أشخاص تحركوا خطوات ، وتوقفوا قرب المدخل .

المرأة الطويلة بارزة عظام الوجه لم تتحرك . . اختلج أنفها الطويل المقوس ، واحمرت عينها الواسعتان ، ودارتا فى معجريهما . . التفت إليها وقال فى حدة :

- امشى من قدامى يا امرأة !

انفجرت المرأة دفعة واحدة . . ضمت يسراها طرف عبايتها السوداء الحشنة ، ومدت سبابة يمينها فى وجهه .

- قبيلتنا غم يا شمروخ يا بن زيب العرجاء ؟ .. امتلأ جيبك بالنقود ،
ونسيت أمك تحمل طبقها في يدها ، تدور على البيوت ، تشحذ من كل بيت
لقمة !

- أمي أنا يا مغربية يا بنت كذاب القبيلة ؟

- من غير أمك ؟

- أمي كان لها الفضل عليكم جميعاً يا « زبالة » العرب ! كل رجالكم
ونسائكم أكلوا من صنع يديها !

- الذي قال لك هذا الكلام ضحكك عليك ، ليأخذ منك ثوبين وقطعة
صابون ! أصلك وفصلك أعرفه أنا ! كانت أمك - الله يرحمها ويساعها
ويدخلها الجنة - لاتلبس غير الثياب المرقعة ! ولاتأكل في اليوم غير طقة
واحدة !

- أنت (تقولي) هذا الكلام لأنها كانت أجمل من أمك ومن خالاتك
وسبقتهن في الزواج يا بنت كذاب القبيلة !

- وكيف عرفت أنها جميلة وهي التي ولدتك من هنا ، وماتت من هنا
يا فقري الوجه يا مر اللسان ؟

وأدخلت يدها تحت عباءتها ، وسحبت الثوب الأصفر من تحت إبطها ،
وقذفته في وجهه !

- خذ ثوبك اكس به واحدة من نسوانك ، وأقبل فلك عن سيرة القبيلة
التي لولاها ما جاء لك ذكر !

واندفعت خارجة .. ووقف هو ساهماً للحظات ، والواقفون قرب المدخل
يرمقونه في إشفاق .. واندفع أحدهم من الخارج ليقول :

- العمدة وصل .

ودخل رجل طويل القامة . . يرتدى جبة وقفطاناً وعمامة صغيرة . . انحنى قليلاً ، ووقف . « شمروخ » على مشطبه ، وتعانقا . . سلامات يا عمدة ؟ . .
حمداً لله على السلامة يا شمروخ . . كيف حال النجع يا عمدة ؟ . . وما أخبار بلاد الله يا شمروخ ؟ . .

وجلسا على أريكة خشبية خضراء ، متقاربي الوجهين ، وعمامة « شمروخ » تحول بينهما .

وتناول شمروخ لفافة خاصة ، أعطاها العمدة باسمًا :

- ثوب لك ، وثوبان لنسوانك يا عمدة ، وخمسة ثياب للأولاد !

- نرده لك في المسرات يا شمروخ .

وتوافد الرجال ، وفرشت عشرات البروش في ساحة الديوان الواسعة ، وجلس الشبان عليها ، وجلس الكبار على الدكك وأسرة الحبال ، وتواعد الدخان من كل المواقد ، استعداداً للعشاء الجماعي للقبيلة .

وسأل شمروخ عن شيخ البلد « علام » فقالوا له إنه ذهب لزيارة أحد النجوع البعيدة ، وسيدركنا عند صلاة المغرب ، فأرسل له هديته الخاصة مع أحد الشبان .

وسقط نصف قرص الشمس وراء النخل البعيد . .

. . ودخل غلام أسود ، جذاب الملامح ، عليه قميص أبيض وسروال من « العبك » يصل إلى قدميه . . شق الجموع فوق البروش حتى وقف أمام شمروخ ، وصاح بصوت رفيع غاضب :

- توزع حاجاتك ومحتاجاتك على النسوان ونسى الرجال ! تنظني صغيراً في

عينك ؟ هات ابنك الكبير بسحب نبوته ويعزى لى فى الميدان ! أوتعال أنت نفسك وسأثبت لك أن المرحوم أبى خلف ولدأ يقاتل التماسيح فى البحر ! هب شمروخ واقفأ . . احتضن الغلام . . عانقه . . ربت كفيه . . قبل رأسه . . ثم تلفت حوله ، فلم يجد غير حقيبة صغيرة مغلقة ، وغير الثوب الأصفر الذى تركته المرأة الطويلة .

مضت لحظات وهو يتلفت فى حيرة ، حل بعدها إحدى عمامه ، ودار بها على رأس الغلام ، ونسقا له ، وضبطها ، فبدأ الغلام الرفيع الأسود كقلم رصاص فوقه كرة كبيرة من القطن !

ولما هم الغلام بالذهاب أوقفه ، وتاوله الثوب الأصفر ، قائلاً فى رجاء :
- أعط هذا الثوب ، وأنت فى طريقك عمك مغرية بنت كذاب القبيلة !

* * *

رأى شمروخ ، فى مدخل الديوان ، رجلاً طويلاً ينحى قليلاً ويحمل فى يده عصاً . . قام مهرولاً فأنحأ ذراعيه ، ودخل الشيخ « علام » بعباءته السوداء ، وتجاوذا وجهه الدقيقة تبسم معه . . تعانقا طويلاً والشيخ علام يقول بلهجة ضاحكة :

- عندما قالوا لى « المطيّن » وصل . . تركت المجلس وجئت !
وضحك الجالسون بصوت عال . . وجلس شمروخ والشيخ علام وبدكل منها على كفف الآخر .

وانشغلت كل جماعة فى حديث جانبى ، وقام الشيخ علام وترى على أريكة وحده وعنقه النحيل بنو بعامته الكبيرة ، وقال لشمروخ الذى كان يواجهه :

- سمعت بخبر «بتول» ؟
- ما لها ؟
- ابن عبد الغنى الجوابرى ، تركها !
- تركها ؟
- أبوه أرغمه على تركها !
- احمرت عينا شمروخ .. تسأل بصوت خافت يدل على الضيق :
- يخطبها ثم يتركها ؟
- هو لم يخطبها .. تكلم بشأنها مع أمها دون علم أهلها .
- وافرض .
- هم يريدون أن « يطيئوا » الولد لبنت عمه .
- لكن ماذا يقول الناس عن « بتول » يا شيخ علام ؟
- أنت تعرف عبد الغنى الجوابرى .. يبيع حياته من أجل ملهم .. يخاف
- على بنت أخيه أن يتزوجها غريب يشاركهم في أرضهم ونخلهم !
- لكن نبينا قال للصحابه ، تزوجوهن فقيرات ، والله يغنيكم .
- قال الشيخ علام بلهجة ضاحكة :
- لكن عبد الغنى الجوابرى يقول « تطينوهن » غنيات !
- لم يتسم شمروخ كما كان يتظر الشيخ علام .. تسأل وهو يقلب كفيه
- الكبيرتين :
- وممة بتول ؟ .. ماذا تقول القبائل ؟
- التفت العمدة إلى شمروخ ، وابتمس في وجهه كأنه يطيب خاطره ، وقال
- في رقة :

- عبد الغنى الجوابرى لا يهتم بهذه الأشياء . . ربما لا يعرفها أيضاً . . أنا شخصياً أعتبره غير موجود !

برز عرق أسود فى منتصف جبهة شمروخ . . تجاهل العمدة وخاطب الشيخ (علام) قائلاً فى حق :

- أنت تعرف السبب ، لكنك تداهن ! الجوابرى يقولون إن نسبنا مشكوك فيه ! ويرفضون الزواج منا . . وأنت تداهن ! لماذا لاتكون صريحاً فى كلامك ؟ انتبه القريبون إلى حدة المناقشة ، فأداروا أعناقهم . . وقال العمدة بلهجة توحى بأنه يجد صعوبة فى السيطرة على نفسه :

- لاتعكر دمك بسبب مسألة فارغة . . حمداً لله على سلامتك .

انفعل شمروخ . . ضرب حاجز الأريكة وقال مهتاجاً :

- طلاق ثلاثة من نساءى الثلاث . إذا لم يتم الزواج ، ويكل احترام أعمل كل ما فى رأسى !

توقفت الأحاديث الجانبية فى الحلقات القريبة والبعيدة . . تضاعفت التجاعيد الدقيقة على وجه الشيخ علام البرونزى وتوتر عنقه النحيل . . قال بلهجة معاتبة :

- غلطان أنت . . على كل حال نرسل فى طلب الشيخ فراج يرد لك اليمن .

- طبعاً ستقولون إننى مجنون ! من يدافع عنكم يا « زبالة » العرب ، يا غم تقولون عنه مجنون . . الجوابرى يشككون فى نسبكم ويتركون ببتكم ؛ ليقول الناس عنها ويعيدوا ! فإذا غضبت لكم فأنا مجنون ! طلاق ثلاثة من نساءى الثلاث . . إذا لم يتزوج معوض بن عبد الغنى الجوابرى بتول بنت محمد

على السوالى أنخلى الجوابر يندمون طول حياتهم !
رفع العمدة لفافة الثياب ، المهداة إليه ، من فوق حجره ، ووضعها
على الأريكة ووقف . . فتح فيه ؛ ليقول شيئاً ؛ لكنه عاد وأقفل وخطا إلى
الخارج والأنظار تتبعه . . وقال له الشيخ غلام فى رجاء :
- ارجع بالله عليك يا عمدة !

لكن هذا استمر فى سيره دون أن يرد . . وقام بضعة أشخاص من كبار
السن وخرجوا وراءه . . ثم قام بضعة أشخاص آخرين ، وتلفتوا حولهم ، ثم
هوا بالخروج ، لكنهم عادوا وجلسوا فى صمت . . وقال الشيخ غلام
لشمروخ :

- نرد لك اليمين ، الله يبارك فيك كوفى ذريتك . . الموضوع كله لا يزيد
عن

قاطعته شمروخ بلهجة غاضبة وهو يلوى شفته :

- متى تتخلى عن المداهنة ؟

تراجع الشيخ غلام برأسه إلى الوراء ، قالت العمامة الكبيرة بالعتق النحيل
إلى الخلف بأكثر مما أراد وقال لاهثاً :

- (زمان) كنا نسامحك ونقول : هو مجنون : لأنه صغير السن . . أنت
الآن فى سن الأربعين التى نزلت فيها الرسالة على رسول الله . . نرسل فى طلب
الشيخ فراج ونرد اليمين . . والله بالله يا شيخ لو خالفتنى أقاطع بيتك وديوانك ،
ولا أدخل عندك طول العمر !

وقف شمروخ كأنه سيخطب . . لوح بيده صارخاً دون أن يتبه لعباءته
تسقط وراءه :

- أنت مداهن والعمدة مداهن وكبار قبيلتكم تحولوا إلى مداهنين ، وأنا في نظركم مجنون يحلف بالطلاق من غير تفكير ، وأنتم كل شغلتم أن تردوا له البمين يا « زبالة » العرب يا غم ! طلاق ثلاثة من نسوانى الثلاث ، إذا لم يدخل معوض بن عبد الغنى الجوابرى على بتول أخلى الصراخ يُسمع في سابع بلد !
للم الشيخ علام عباءته على كتفيه ووقف . . تلفت حوله كأنه يبحث عن شىء وهو يتمم :

- اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير .
وخطا إلى الخارج في عصبية أوضحها كبرسته . . لكنه توقف عند الباب ،
والتفت وراءه قائلاً ورعشة الغضب تلف صوته :
- أنت تريد خراب البلد يا فقرى الوجه يا امر اللسان يا بن زينب
« المطينة » !

* * *



تحت بضع شجرات على الشاطئ ، وقفت « بتول » تنتظره . . رآته يدخل
غابة النخل بجواره الأنيق السريع . . ثوبه أبيض وعمامته بيضاء وحماره
أبيض . . يظهر في غابة النخل ويختفي ويظهر ويختفي كلمع البرق . . توغل في
أعماق الغابة وهبط . . علق اللجام في جريدة غليظة يابسة للنخلة واطئة
وامتدار . . رآته يتلفت حوله في حذر ، ويبحث عنها بعينه . . صعدت مع
الشاطئ بضع خطوات فرآها . . أسرع إليها الخنطى وهبطا معاً . . جرتها ملقاة
تحت شجرة وابتسامتها ترغد . . أمسك بيدها :

— من رآك يا بتول ؟

— خائف ؟

— أبناء قبيلتك يا بتول . . أبناء قبيلتك . . آه لورآنى أحدهم .

— أنا لا أخاف من الجن !

— كلام يا بتول . . كلام !

— أنت خواف مثل أهلِكَ .

— أنا موافق . . لكن من رآك ؟

أشارت إلى جرتها :

— هذه الجرة ، وغابة النخل ، وبحر النيل !

تلفت حوله فلم ير غير الشاطئ الشاهق ، والجبل الأبيض بسفحه الأخضر

وقته البيضاء ، تتحداه المدخنة على الشاطئ الآخر ، وجزء من مبنى المدرسة الابتدائية عند منحى النهر .

- أنا أريدك (أحبك) يا بتول !

- وأنا أريدك يا معوض .

- ربنا يخليك ويجمعنا في بيت الحلال يا بتول .

- يعلى مقامك ويشد حزامك ويشق لك في البحر طريق يا « معوض »

غزت وجهه الأسمر سحابة من الهم ونظره يقع على رقعة مصفرة على كتف ثوبها باهت الحمرة :

- شيخ العرب أعطاك هدية ؟

- عمى شمروخ ؟ .. أهدي لى ثوبين .. واحد لى وواحد لأمى .

- شيخ العرب رجل طيب .. عيه الوحيد ، أنه يحب الافتخار .

- أنا أريده .

- وأنا أريده .. لكنه يحب يفتخر .

ضحكت بتول وقالت :

- مرة جاءه شحاذ غريب يعنى على الراباة ، وقال له : أنا عملت فيك

قصيدة شعر أنت وقبيلتك « السوالم » وغنى له أولها :

السوالم ناس عُمَد من زمان .

وشيخ العرب « شمروخ » رجل عَظْمان !

قبل أن يسمع آخرها أهدي له حماره الأسود .. وبعد ذهاب الشاعر قال له

شيخ البلد :

« ماذا يقول الناس عنك إذا رأوا حمارك الغالى تربية العز ، يركبه رجل

يشحذ على الرابة ؟ .. فركض وراء الشاعر وأدركه بمركب في متصف
النيل .. أخذ منه الحمار وأعطاه نعجة !

- أقول لك يجب يفتخر .. مرة رأيت واحدة من قبيلتكم تطلب منه عشرة
قروش ، فأدخل يده في جيبه وأخرج منه جنيهاً .. أعطاه المرأة وقال لها :
« حظك ! .. مادام خرج على حظك ، فهو لك » .. رجل فشخار !

- لا تقل فشخار يا معوض يا بن عبد الغنى الجوابرى .. شمروخ عمى .
- هو من قبيلتك وليس عمك يا بتول يا بنت محمد على السوالى .. أنت
وهو تجتمعان في الجلد الثانى والعشرين !

هزت رأسها مستنكرة :

- أبدا والله .. فى الجلد العشرين !

سحابة ضئيلة بدت غريبة فى السماء الصريحة ، تعبر النيل .. وضع كفه
بكمها الأبيض العريض على كنفها ، فالت قليلا وانزلت كفه وقالت فى
دلال :

- اقعد ساكت يا معوض يا بن عبد الغنى الجوابرى .

- أريدك يا بتول .

- وأنا أريدك .. لكن اقعد ساكت .

نسمة خفيفة تمايلت معها حقول الترمس ، داكنة الخضرة ، المتدرجة مع
الشاطئ الصاعد .

- معى حتى الآن عشرون جنيها .. بعد محصول القمح ومحصول البلح
ومحصول المانجو ، أكون جمعت ما يجمعنا فى بيت الحلال غصباً عن أبى وعن
كل الناس يا بتول .

- سمعت بما قاله عمى شمروخ يا معوض ؟

- ماذا قال ؟

- طلاق ثلاثة من نسوانه الثلاث . . إذا لم تتقدم للزواج منى الآن يجعل

الصراخ يسمع من سابع بلد !

تلفت حوله فى ذعر . . رأى ثعلبين يظهران فجأة ثم يختفيان فى حقول

الترمس . . قال لها بصوت مخنوق بالغضب :

- ولماذا يتدخل شمروخ فيها لا يعنيه ؟

- عمى طبعاً ويخاف على مصلحتى .

- أبداً . . هو يجب الجنازات كى يشبع فيها مناحة . . يفتح المشاكل ويملاً

الدنيا بالصراخ ليتحدث عنه الناس . . ماله هو ومالنا ؟

- أنت زعلت ؟

هدوء صوتها الناعم مع نظرتها الضارعة أنسياء انفعاله . . تنهد . . سمعها

تقول فى ضعف :

- أريدك يا معوض . .

رأى الشفتين فى شكل القلب ، تنفرجان قليلاً فوضع يده على كفها . .

احمرت وجنتاها وتهدجت أنفاسها ، ومال رأسها يستكين على صدره .

ضمها إليه بقوة ومال على فها وأطبق عليه بأسنانه ، فدفعت بعنف ،

وابعدت ، ويدها تتحسس شفثيها ، وتعبيراتها توحى بالألم !

- إن شاء الله يأكلك تعبان يا معوض وتموت !

- سامعيني يا بتول .

بدت كالنمرة الصغيرة المتوتبة عندما انفعلت ومدت سبابتها فى وجهه :

- وحياة بحر الله الطاهر . . ما أخليك تشوفنى تانى .

قال فى ضراعة :

- محقوق يا بتول . . ساعحنى يا أخية .

انشغلت فى تمحس شفيتها ، ومضى يتطلع إليها وقد بدا على وجهه تعبير
الشعور بالذنب . . رأى الألم يعتصر وجهها الحلو ، وقال لنفسه : يا ليتنى
مت . . انزلت عيناه على الجسد بديع التكوين ، فالساقين الطويلتين
الممتلئتين ، فالقدمين الكبيرتين المشققتين ، وقال لنفسه : أسرع بجمع النقود قبل
أن يخطفها العرسان منك .

- محقوق أنا يا بتول .

. . وشت عينها الواسعتان السوداوان بتعبير الأسف ، وهى تأمل عوده
الفارع ، وأنفه الوسيم ، وخصلة الشعر المعقدة مثل كرة الشوك ، تطل أسفل
عمامة شبه الحريرية ، ويده ممدودة فى الفراغ تتضرع ، والهواء يلعب بكما
الحريرى ناصع البياض .

- خواف أنت مثل أهلك ، لكنى أريدك يا معوض .

- وأنت مجنونة مثل أهلك وأنا أريدك يا بتول .

- أهلى أنا مجانين ؟ . . أهلى أعظم من أهلك . . عندما يموت عندكم رجل
تكون عليه قليلاً ، وتدفونه . . حتى الغزاء عندكم لا طعم له . . أما نحن
فالفارق كبير . . نترل كلنا إلى « المناحة » عليه . . الكبار والصغار والرجال
والنساء . . الطبول تضرب عليه سبعة أيام حتى إننى سمعت أن شيخكم القديم
قال قبل أن يموت : « يا ليتنى كنت من « السوالم » ؛ ليشيعونى إلى مقرى الأخير
بما يليق بى ! »

قالت ذلك وضربت قدمها بالأرض ، فزقزق خلخالها الرديء الفضة . .
فقال لها باسمًا كأنه تذكر شيئاً :

- ولّفت (ألّفت) فيك قصيدة شعر .

نطق كلمة (شعر) بضم الشين .

صفقت يديها وضربت الأرض بقدمها قائلة بسرعة :

- قول يا معوض .

مد عنقه إلى الأمام وغنى . . كان صوته خافتاً وطرف عمامته بهتز مع

اللحن :

يا أمّ خلخال في الساق يرونُ .

غابات وأجواس تدنُّ .

أنا في غرامك راكبي جنُّ .

من دى الحالة - أولى انسجنُ

الصوت مقبول والمهجة مزيج من البدوية والصعيدية والسودانية . .

فركت بتول كفها ، ولمعة خفيفة ذكية تبرق في عينيها كأنها تتخيل نفسها

نغنى لصديقتها « آمنة » ما قيل فيها :

- قولها ثانی يا معوض .

وعاد يغنى في شغف على حين كانت شفتاها تتحركان للحفظ وعيناها تبرقان

في شقاوة .

- أنا فكرت أقابل (أبوك) يا بتول . . أقول له احجزلى بتول حتى أستكمل

النقود ويكون هذا سرّاً بيني وبينه .

تنهدت وهي تقول :

- أمي أفضل منه في هذه الناحية .

- لكن أمك امرأة . . إذا تقدم لك أى واحد فلن تستطيع رفضه بدون

تبرير .

- أبى لا فائدة منه . . منذ تزوج المرأة الجديدة هجر النجع وأقام عندها . .

حتى نفقاتنا نحصل عليها بالقتال ! اتفق مع رجل من رجال القبيلة أحسن .

- لا . . أقابل (أبوك) أفضل .

- هات واحداً من رجال قبيلتك ، واتفق أنت وهو مع واحد من رجال

قبيلتنا .

- كلهم رفضوا . . أعمامى وأولاد عمى الكبار وكلهم . . ولو ذهبت

وحدى لأى واحد من قبيلتك فيقول عني صغير السن ، ويتكرر ما حدث .

سأذهب لمقابلة (أبوك) أحسن .

شبكت أصابع يديها أمامها وقالت في ضيق :

- أبى لا فائدة منه قلت لك !

انتبها على مركب شراعى صغير ، يقوده غلام أسمر ، على رأسه طاقيّة ملونة

جديدة ، وثوب قديم ملوّى بالثقب ، يدور بالمركب ليتفادى صخرة كبيرة تمتد

في النيل ، لها شكل وحش أسطورى .

تراجعا إلى الوراء ، وتواريا وراء شجرتين ، لكن الغلام لمحهما ، فنهض

واقفاً ، والدفة بين ساقيه ، ووضع كفه على قلبه وقال بصوت رفيع متوجع :

- آه من نار الغرام يا جماعة . . طحستنى وأكلتنى وبلعننى في بطنها والله

يا ولاد الحال !

ثم وضع يده تحت أذنه ، وأطلق صوته بموال « أحمر » يشكو فيه الحبيب
الذى يعتقد أنه صغير السن ويتجاهله على حين أنه شاب قبل الأوان ؛ لأنه
يعرف أشياء لا يعرفها الكبار أنفسهم !
وما لبث أن توارى فى منحى النهر ، فخرجا وهما يتنفسان الصعداء ؛ لأنه
ليس من قريبها !

- أقابل (أبوك) وإذا اعتبرنى صغير السن ، وطلب أحدا من أهلى..
فسأذهب إلى أبى ، وأهدده بأننى سأقتل نفسى إذا لم أتزوج بتول !
- طيب .

- سأخبرك بالنتيجة .

- متى ؟

- بعد يومين . . فى مولد الشيخ عامر .

- وكيف أراك فى زحام المولد ؟

- أنتترك فى الدرب الذى شرق المقام . . فى اللحظة التى يقول فيها مؤذن
الظهر « الله أكبر » .

- طيب .

- أوهمى كل جماعة من البنات أنك تسيرين مع جماعة أخرى . . وهناك
زحام طبعاً .

- طيب .

فى غابة النخل . . كان ثلاثة من تلاميذ المدرسة الابتدائية ، يدورون حول
الحمار الأنيق بسرجه ذى القطيفة الخضراء . .

تلفتوا يئمة ويسرة بينطلوناتهم الصفراء ، المثقوبة فوق الركب ، وقال أطولهم :

- معوض بن عبد الغنى الجوابرى ، طلق بتول ، ومع ذلك يأتى فى بجاحة
ليربط حماره فى نخل قبيلتنا . . كأن قبيلتنا خلت من الرجال ، أو كأننا متنا !
ووقفوا فى شبه دائرة ، يتآمرون برءوسهم المحلوقة بالموسى ، وأعناقهم الرفيعة
السمرء . . ثم لوحوا للحمار بأيديهم حتى ابتعد عن النخلة . . وحلوا حزام
السرّج ، وأعادوا ربطه من جديد ، واستغرق هذا منهم وقتاً طويلاً . . بعدها
تواروا وراء بضع نخلات متلاصقة ينتظرون صاحب الحمار !

جاء معوض يدوس على نبات السعدة الهش الزاهى الخضرة بجذائه
الأنيق ، ويقع الشمس المستديرة تسقط على صدره من أعلى الغابة ، فتلمع
معها صدريته المخملية السوداء .

أمسك باللجام ، وأدار طرفه على كف يسراه ، وقفز إلى أعلى فى مهارة
المعتد بنفسه ، وجلبابه الحريرى الأبيض يطير معه كال مظلة . . لكنه فوجئ
بالسرّج يتزلق به إلى الناحية الأخرى ، وبنفسه مطروحاً على ظهره !

وانطلقت ثلاث صفارات صغيرة تضحك فى شتاة دون أن يراها ! فقال
فى غيظ وهو يقف ويتأمل ظهر جلبابه الذى تحول إلى الأخضر الفاقع :
- الحق على أمهاتكم يا قبيلة غجر !

• • •



- أنا مسكين يا امرأة .. مسكين .. من أين لي الفلوس لأزوجه ؟ .. من أين ؟ .. ما الذي فعله حتى أزوجه ؟ .. عمره سبع عشرة سنة ولم يفعل أى شيء غير نهب أموالى ! طول النهار يلبس قصان الكشمير وجلاليب الحرير وقفاطين الشاهى ، ويدور على النيل يحملق فى البنات الحسرانات ، ثم فى آخر المطاف يأتينى ليقول لى : إنه يريد الزواج من بنت محمد على السوالى ؟ قالت الزوجة بنبرة باكية :

- تسببت فى موت أخيه ، وتريد أن يموت هو الآخر ، وأقعد أنا بالملابس الحزينة طول عمرى !

- أولادك لهم عقول مثل عقول أخوالهم ! ماذا أفعل لهم ؟ .. واحد يقول لى يريد الزواج من بندر « كوم أمبو » والآخر يريد الزواج من بنت محمد على السوالى .. عجائب ! وبنت عمهم ؟ .. مالها ؟ .. يتيمة ومسكينة ولن تكلفنا كيلة غلة !

- ولدى الكبير قتل نفسه ، والولد الباقي تريده أن يقتل نفسه !
- وبنت عمه يا امرأة ؟ .. هه ؟ .. أنا أتعب وأبوها الله يرحمه يموت من شدة التعب ، ثم يأتى واحد لا نعرفه يشاركنا فى نصف القيراط والنخلتين والشجرتين من غير تعب لأن ابنتك عشق بنت محمد على السوالى ! .. ثم من أين لى المال لأزوجه ؟ .. أنا مسكين يا امرأة .. والله لو تعلمين حالى

لتعجبت ! كيف أعيش حتى الآن والهجوم ترقد فوق قلبي ؟ . أنا مسكين . .
لا أحد يشفق علىّ ولا أحد يرأف بحالي غير المرحومة أمي ! كانت الله يرحمها
هي الوحيدة التي ترأف بحالي .

ومدكم قيصه الأبيض الذي تحول إلى رمادي ، وقربه من وجهه وانخرط
في البكاء !

وقامت المرأة . . نفضت جلبابها الأزرق ، لباس الثكالي ، ودخلت حجرة
مسودة الجدران . . أسندت ظهرها على القرن ، وأراحت رأسها على كفها ،
وقد أيقنت أن لا فائدة من النقاش . . .

كف عن البكاء فجأة وتلفت حوله كالمذعور . . السماء تحولت إلى رمادية
وبدأت أصوات الليل تزحف . . قام وخطا مسرعاً في اتجاه حجرة في أقصى
البيت عليها قفل ضخم . . أمسك بطرف خيط غليظ يتدلى من سرواله ،
وتحسس مفتاحاً صغيراً . . مضى يعالج القفل ، وقد بدا بثوبه الأغبر على حجمه
الضئيل كالفأر ! دخل الحجرة وأغلقها وراءه . .

وقف للحظات حتى اعتادت عيناه الظلام . . وضع له صندوق ضخم في
أحد الأركان فوقه مصباح غازي صغير . . أشعله ، وأحضر جوالاً طويلاً فرشته
بجوار الصندوق وعلى شفتيه ابتسامة ظافرة .

فتح الصندوق وأخرج منه أكياساً قماشية صغيرة . . وضعها على البرش في
صفيين متناسقين ، ومضى يدلك كفه بالأخرى ولسانه يلحق شفته السفلى بحركات
عصية .

فتح أحد الأكياس وأفرغه على الجوال . . لمعت على نور المصباح ، قطع
ذهبية مستديرة مما تلبسه نساء القرية . . قلب في الكومة الصغيرة بشغف ، وملاً

كفه وقربها من عينيه كأنه يشمها ، ثم أعادها . . فتح كيساً ثانياً وأفراغ ما فيه
 بجوار الكومة الأولى . . مثلثات ذهبية رقيقة . . الكيس الثالث من المستطيلات
 ذات الرسوم الهندسية . . بضعة أكياس أخرى من العملات الفضية القديمة
 عليها أسماء سلاطين آل عثمان . . صفين جميلين رائعين ، من الذهب والفضة
 وبنت محمد على السوالى تريد نهب أموالى ! . أمسك بطرف جلبابه ورفعه إلى
 أنفه وتمخط . . زحف على أربع متجنباً بعثرة الصفين ، ومد يده داخل
 الصندوق . . أخرج بضعة أكياس خفيفة . . كون صفّاً ثالثاً من أوراق
 البنكنوت . . أمسك بكيس مربوط بخيط غليظ وتحسسه وهو يعقد ما بين
 حاجبيه . قالوا له : الحكومة طلبت استبدال البنكنوت فئة مائة الجنيه فلم
 يصدق . . ربت الكيس وهز رأسه متأسفاً ! .

أعاد كل شيء إلى حاله وخرج . . دخل حجرة الموقد فرأى زوجته بثوبها
 الأزرق . . عيناها الواسعتان الجميلتان تنظران إلى لا شيء !

جلس بجوارها متكوراً على نفسه وهو يقول فى ود :

- غاضبة منى يا بنت الحال ؟

- لا .

- ولدنا صغير السن .

- من فى مثل سنه خلفوا .

انفعل فجأة :

- مالى أنا ومال غيره ؟ . . من يملك الحناء يحنى ذيل حماره ! فمن أين لى

الحناء أنا المسكين ؟

ثم تذكر فجأة أنه انفعل بلا سبب ، فدأصابعه الرفيعة كالمخالب وربت

خدها ملاطفاً :

- هانى لنا العشاء يا بنت الخال .

وأحضرت إناء نحاسياً أسود ، مملوءاً إلى نصفه باللبن ، وفتت فيه رغيفاً من
الشعير ووضعت على النار . . فسألها وهو يحك رأسه :

- بعت اللبن ؟

- بعته .

- والبيض ؟

- بعته .

- الحمام تحته فراخ ؟

- زوج واحد .

- بعته .

- لا .

- ربنا يبارك فيك يا بنت الخال . . تساعديني أنت على هموم الدنيا الراقدة

فوق قلبي . . هانى الفلوس !

• • •



قبل الغروب بقليل هبط « معوض » إلى النيل بصحبة ابن خالته « سلامة » ابن الشيخ علام . . على كل منها جلابب صوف أنيق فوق قفطان الشاهي ، وعمامة بيضاء مزهرة لها شراشيب خضراء .

هذه ليلة النصف من شعبان التي ترحل فيها القرى بنساها وأطفالها إلى قرية « دراو » . . قبل هذه الليلة بفترة طويلة يتنادى البحارة فوق المراكب الأسوانية في طول البلاد يذكر بعضهم بعضاً الليلة ليلة « الشيخ عامر » المباركة . . المراكب التي تحمل الجرار والحجارة في نيل القاهرة ودمياط والإسكندرية تفرد قلوها قبلها بشهرين ، وتوجه إلى الجنوب ، والمراكب التي ترسو على شواطئ أسوان العاصمة تفرغ حمولتها ، وتستدير ؛ لتتجه إلى الشمال .

رأى معوض وسلامة مراكب القرية تدور على شاطئها الشمالي المنحني من أوله إلى آخره . . وعند منحنى النهر ظهرت مراكب « السوالم » السبعة تقرب مع الغروب في صفين ، وفي مقدمتها يتخايل المركب الضخم الأبيض « الطوفاني » يقوده « حنظل القاضي » كبير بحارة السوالم بشاربه المشرع ! مظاهرة سنوية معروفة يقوم بها بحارة السوالم . . يتواعدون كل عام على مكان معلوم يلتقون فيه ، ثم يدخلون مياه القرية « الإقليمية » في مظاهرة مساء ليلة النصف من شعبان كي يتصايح الناس من شواطئ القرية « أسطول السوالم » . . وصل ! »

لا أحد يصدق أن الليلة هي الليلة المباركة فعلاً ما لم يشهد دخول الأسطول السومالي . . كأنه هلال رمضان !

هبطت البنات إلى النيل بشياهن الزاهية ، وشيلان القطيفة تبرق فوق رموسهن ، ونزل الشبان الصغار ، بعد أن شبعوا عراكاً مع الخياطين الذين تأخروا في خياطة جلاليتهم الجديدة . . لأحساب هنا لعيد رمضان أو لعيد الأضحى . . نصف شعبان فقط هو الذى يُلبس الجديد من أجله وتشد إليه الركاب !

كانت بتول بثوبها الأحمر الجديد وشالها القطيفة الأصفر - كأنها في ليلة عرسها . حينما هبطت إلى المركب الأحمر الكبير الذى يحمل وحده ربع النجع ، صمت الشبان فجأة ، وتلفت النساء ، ومصصت العجاثر شفاهها ، ووضع الولد الأحول محمد قر الدين يده على قلبه وقال بأعلى صوت : « أنجذنى يا شيخ عامر من الهلاك ! »

وفوجئت بتول بمعوض يجلس في مقدمة المركب الذى جلست في أرضيته ، وتعجبت من جرأته ، لعلمها أن شبان قبيلتها يتمنون التحرش به ! لكنها لما رأت ابن خالته « سلامة » يجواره ، عرفت أن الأخير يسبق عليه حمايته ، لأنه « نزيه » كما تقضى التقاليد .

شيخ العرب شمروخ جلس في مركب صغير أتيق بين العمدة وشيخ البلد علام ، مع ثلاثة من كبار السن في السوالم ومعهم عائلاتهم في أرضية المركب . وحانت لحظة الرحيل ، ووقف الناس يتلفتون فوق المراكب ينتظرون إقلاع « الطوفانى » بمحمولته الزاهية إيذاناً ببداية الرحلة . . وزغردت النساء ، ودقت الدفوف حين رأوه يستدير ويتجه إلى عرض النهر ، وفردت المراكب قلوها

وامتلأت صفحة النهر ببضع عشرات من المراكب من مختلف الأحجام . . وفي أعلى سارية الطوفانى ، راية حمراء يقال : إن « سالم الكبير » كان يحملها في اليوم الذى قاد فيه شيخ العرب همام الهوارى قبائل جنوبى الصعيد ضد المماليك . نظرات كثيرة متبادلة ، بين معوض وبتول ودون خوف : فالشبان مشغولون فى الجملة فى البنات ، والبنات يتظاهرن بعدم الاهتمام ، وفى الوقت نفسه يقمن بحركات استعراضية لاسترعاء الأنظار ! كانت بتول سعيدة بهذا الجو المتحرر الذى لا يتكرر غير مرة كل سنة . . إلا أنها شعرت بالضيق حين رأت ابن قبيلتها الولد الأحوال محمد قمر الدين يجلس فى مقدمة المركب ، ويسلق « معوض » بلسانه بطريقة غير مباشرة . . كان يقلد والد معوض فى سخرية مرة ، وشبان السوالم حوله يضحكون :

- ولماذا أزور الشيخ (عامر) ؟ . . كان رضى الله عنه رجلاً طيباً يحب المساكين أمثالى . . لا أظن أنه يفضض منى إذا عرف أننى فضلت الكحت فى الأرض على زيارته ! ذلك لأنه يعرف أننى لو لم أكحت فسأموت جوعاً ! . ثم لماذا أرسل له خروفاً أو نعجة لتذيق على عتبة مقامه المبارك ؟ . . هل فى استطاعته - رضى الله عنه - أن يأكل كل هذه الذبائح فى يوم واحد ؟ . . مسألة الخراف والنعاج ما هى إلا نوع من الاحترام ليس إلا . . لذلك بعثت إليه - رضى الله عنه - بقرش صاغ كنوع من الاحترام ؛ ليوضع فى أعز مكان من مقامه المبجل !

فى المركب الصغير الأنيق قال شيخ العرب شمروخ لمن حوله ، وجلاليه الصوف الثلاثة تظهر واحدة وراء الأخرى من فتحة الصدرية الطويلة :

- أنا أجلت « الحرب » مع الجوابر حين نهاية مولد الشيخ عامر لثلاثة أسباب :

نسب الأول : هو خوف من غضب الشيخ عامر إذا ظن أنني تعمدت إفساد ليلته .

والسبب الثاني هو أن قبائل بلدنا في حاجة إلى الاتحاد الآن ضد بعض القرى التي تضيق بنا كلها رأتنا في المولد .

قال ذلك وصمت . . فسأله العمدة :

- والسبب الثالث ؟

- الثالث ؟ . . هل قلت (ثالث) ؟ . . لا ، لا ثالث يا عمدة !

ثم وقف يتلفت حوله ، الشمس هبطت وراء جبل « أبو شهاب » والمراكب تباعدت بعضها عن بعض كقطع الليل الصغيرة داخل الليل ، وأصوات دفوف بعيدة وراء منحني النهر ، من مراكب إحدى القرى تغنى للشيخ عامر الأغنية المشهورة « جيناك زوار يا بو محمد » .

• • •

شق معوض الزحام إلى أن وصل إلى الدرب الذي يقع شرق مقام الشيخ عامر . . الصحراء الواسعة أمام المقات امتلأت بفرسان القرى يتسابقون بخيولهم . . تجمعات كثيرة تناثرت في الصحراء : بعضها يقيم مولداً تقرأ فيه المذائح للرسول ، وبعضها حلقات ذكر ، وبعضها حلقات للشباب يغنون « العراسة » ويرقصون وعشرات الشوادر والخيام وعشش البوص امتلأت بالحمص والحلوى والبول السوداني . . في أقصى الزحام في عمق الصحراء أقام الخدم - الرقيق السابق - خيامهم لبيع (البوظة والعرق) والحمور الرخيصة .

جاءت بتول تتعثر في ثوبها الأحمر الجديد ، وشالها القطيفة الأصفر تغبر فوق رأسها ، والحذاء الجديد أوجع قدميها لضيقه .

كان الجو حاراً ، والخليل المتساقطة تملأ الفضاء غباراً ، والشمس قاسية برغم فصل الشتاء . .

سار أمامها بيبضع خطوات وسارت وراءه يشقان زحام الدروب الغاصة بالبشر من كل القرى والنجوع وبمختلف الأزياء . . طلبة المدارس الذين قدموا من القرى المجاورة ، يرتدون الجلابيب البيضاء وراء وسهم عارية ، والطالبات يرتدين الجلابيب الفضفاضة أيضاً ، والقادمون من غرب النهر لهم عائم ضخمة ، والنوبيون بمائم ملونة ، وبعض نساء النجوع الصحراوية لا تظهر غير أعينهن !

بضعة سياح بينطلوناتهم القصيرة وآلات تصويرهم معلقة في أعناقهم يحذقون في هذه الجموع البدائية ، والجموع تشير إليهم وتقول : « انظروا إلى البلهاء ! »

بعد مسيرة نصف ساعة في دروب « دراو » وصل معوض ببتول إلى درب طويل أوصلها إلى ساحة صغيرة تدور حولها بيوت سمراء قيئة تعطى الصحراء ظهرها ، استقبلتها في الساحة امرأة زنجية مفرطة البدانة تملأ يديها بدوائر ذهبية . . وضعت يديها فوق كتفي معوض واحتضنته في فرح وهي تهف بصوت متهدج :

— أهلاً بالحبيب . . حمد الله على السلامة يا عمدة .

وريت بكفها الكبيرة جبين بتول ، ثم قرصتها في خدها بجنان قاتلة :
— حلوة أنت مثل كعكة العيد يابنية ! على حين كانت بتول تغر فاهها وتتنظر

- إليها تارة وإلى معوض تارة دون فهم .
- أشارت المرأة إلى أحد الأبواب وأومات له بالدخول قائلة :
- البيت بيتك يا حبيب .. ادخل .. سأعود حالاً .
- ودخل معوض ودخلت بتول تحديق في البيت باستغراب !
- فناء صغير تتوسطه نخلة يتكى عليها زير ، وعلى الجانب الأيسر برش كبير على الأرض بين سريرين من الحبال ، وحجرتان صغيرتان مغلقتان ، وأرنب أبيض يشمشم في الجدار .
- سأها وهو يجلس بجوارها فوق سرير الحبال :
- هل يحس أحد بغيابك يا بتول ؟
- لا .. كل جماعة من جماعات البنات تظن أنني في جماعة أخرى .. لكن من هذه المرأة ؟
- إنها « كهرمان » .. أمها كانت عندنا (زمان) ، وهي ما زالت تزورنا حتى الآن .
- وتأتى أنت لزيارتها ؟
- كهرمان كأنها واحدة من عائلتنا .. أنا أزورها باستمرار .. كلما جئت « دراو » لسوق الثلاثاء أول زيارة الشيخ عامر ، أقضى فترة الظهر عندها .
- ثم صمت قليلا وقال بلهجة آسفة :
- قابلت (أبوك) يا بتول !
- خبر يا معوض .
- قلت له : « احجز لي بتول يا عم محمد على » فديده وقال لي : « هات المهر » !

- قلت لك : لا فائدة منه يا معوض !

وجاءت «كهрман» بثوبها الأسود تجر كتل اللحم .. هللت لها بصوت رفيع كصوت الأطفال وسألته عن أهله :

- كيف حال سيدى عبد الغنى وسيدنى فاطمة يا حبيب ؟

شعر بفخر عظيم .. اهتزت عمامته الحريرية بشراشيها الخضراء مع حركة رأسه .. رمق بتول ثم قال لكهرمان :

- فيك الخير .. (يسلموا عليك) ومشتاقين .. اذبحى لنا دجاجة وحمريها .. لكن حالاً حالاً .

- ذبحتها من الصباح يا حبيب .. كنت أعرف أنك قادم يا عمدة .. لكن من هذه البنية ؟

- بتول .. من قبيلة السوالم .

ضربت كهрман صدرها وشهقت :

- قبيلة السوالم ؟ .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أدركنا بسرك يا شيخ عامر ! قبيلة كلها مجانين يقاتلون الناس بلا سبب وإن لم يجدوا من يقاتلونه ، قاتل بعضهم بعضاً .. حتى نماؤهم يشتمن الناس بلا سبب ! فى آخر زيارة لكم قابلنى شاب صغير السن منهم ، وأمسك يدي يريد خلع ذهبي بالقوة .. صرخت وملأت الدنيا ، فتجمع الناس ، ودخل الشاب حقول الذرة .. ومع أنهم رأوه فإنهم أنكروا أنهم عرفوه .. خسارة البنية الحلوة يا معوض تكون من قبيلة السوالم !

وتجهمت بتول .. لكنها لما رأت (معوض) يفرق في الضحك ، ضحكت في سعادة ولا سيما عندما رأت «كهрман» تغرق فى ضحكة طفولية بريئة .

دخلت كهрман في ركن يفصله عن الفناء جدار قصير . . قام معوض ودخل وراءها . . كور في قبضته ورقة مالية من فئة الجنيه ومدّها لها ، فصرّت صدرها قائلة :

- أنا ؟ . . في يوم مولد الشيخ عامر ؟ . . أبداً يا حبيب . . أنا آخذ منك ومن أمك الكثير يا حبيب !

وحاول معها ، لكنها أصرت على الرفض ، فعاد ليجلس بجوار بتول ، وما لبثت كهрман أن عادت تحمل طبقاً أبيض كبيراً به أجزاء دجاجة كاملة . . بما في ذلك الرأس والجناحان والساقان بأصابعها . . وضعت الطبق على البرش وتربعت ، وهبط معوض وبتول ليأكلا . . وتناولت كهрман رأس الدجاجة قائلة :

- ومقام الشيخ عامر . . لا أذوق من الدجاجة إلا رأسها . . الباقي من نصيبك ونصيب البنية يا حبيب . . ما اسمها قلت ؟
- بتول .

- أنت خطبتها يا عمدة ؟

رفع رأسه ينظر إلى بتول متفائلاً ثم قال لكهрман :
- سأخطبها بعد المولد .

وقامت كهрман وعادت تحمل إناء مستطيلاً من الصفيح امتلاً حتى حافته بخمر « العرق » . . مدته إليه فتردد قليلاً ، ثم تناوله ونظر إلى بتول نظرة غير مفهومة . . قد توحى بخوفه من أن تنهيه بنقص الرجولة إن لم يشرب ، وقد توحى بالخوف من اتهامه بشرب الخمر إن شرب ! ثم قرّبه من أنفه وشمّم فيه قليلاً ، ثم عب منه كأنه قرر الإقدام على الانتحار ، وتناوله لكهрман التي تناولته

بدورها لبتول . . لكن بتول ابتسمت وهزت رأسها معتذرة ، فعبت منه
كهريمان ، ووضعتة جانباً وهي تضحك وقد احمرت عيناها .

أكلت وجلسا على سرير الحبال ، وجلست كهريمان على البرش عند أقدامها
تعب من الإناء وتبتسم في وجهيها في ضراعة .

قامت بصعوبة وملأت الإناء من جديد . . وعند عودتها لمحت يد معوض
تحيط بكتف بتول . . لكنها رأتها يفرغان عند رؤيتها .

جلست كهريمان تشرب في شراة ، وتوجه إليها نظرات مشحونة بحنان
غريب .

مدت الإناء لمعوض فبرز رأسه رافضاً فقالت ضارعة :

- وحياء الله يا حبيب .

شرب معوض حتى احمرت عيناها . . وأشارت كهريمان إلى باب حجرة
قائلة :

- اجلسا فيها يا عمدة .

نظرا إليها في دهشة ، فقالت متوسلة :

- اعمل (معروف) يا حبيب . . إن كان لي خاطر عندك يا عمدة . . هي
خطيبتك وأنت خطيبها . .

ونهضت ، فقبلت رأسه ورأس بتول ، وأمسكت يده ، ووضعتها في يد
بتول ، ومدت له الإناء فعب منه بلا وعي ، ووقف ، فوفقت بتول ، فشدها
وهو يخطو أمامها مترنحاً ، فتبعته كالمنومة .

أطلا في مدخل الحجرة فرأياها معتمة . . لصق جدارها المقابل سرير من

الجريد ، فوقه حشية عارية ، وبضعة ثقب تسالل بالضوء من أركان السقف الطبيعى .

أغلقا الباب وراهما وهما يلتهان . . ومدت بتول سبابتها محذرة :

- تقعدُ جنبى ساكت . . أو أصرخ واملأ الدنيا !

لم يرد . . كان رأسه يدور ويختلط عليه الحلم بالواقع ، وطعم « العرق » يتسرب مع أنفاس أنفه . . جلسا على السرير ، ومد يده وأحاط عنقها ، لكنها خلصت نفسها وابتعدت عنه قليلاً .

فى الخارج كانت كهрман ترحف على أربع وعينها فى ثقب الباب . . رأت « معوض » يقترب من بتول فلمعت عينها وتسارعت أنفاسها . . كان يقرب رأسه من وجهها ويقول كلمات غير مفهومة وبتول تميل برأسها نحوه فى بطاء كالمحذرة . . مد يده واحتضن رأسها ومضى يقبلها فى خدها بسرعة وشوق ، فانهمرت الدموع من عيني كهрман وماجت ملامحها بتعبيرات فرح بدائى تحالطها تعبيرات حزينة ! رأتهما يرقدان على السرير ويتداخلا جلابيه الأبيض بثوبها الأحمر ، ثم رآته يقف فجأة مبهوتاً يحدق فى بقعة دم حمراء فى جلابيه ، وبتول نصف راقدة تحدق فى وجهه بشعرها المهوش فى فزع !

* * *

فى الجدار الخارجى الملاصق لمقام الشيخ عامر ، تجمعت نساء قبيلة « السوالم » بعباءاتهن السوداء الحشنة تحق تحتها الثياب الجديدة الملونة ، يلتهن من العطش وقد تغير الجوف فجأة وعصفت الريح الساخنة . . وسال العرق على وجوه البنات ، وجفت شفاههن ، وانطفأت من عيونهن نظرات الفرحة . . وبكى الأطفال وطالب الصبيان بالماء ، وولولت امرأة :

- أدركنا يا شيخ عامر من الهلاك . . كل بلدة دارت حول أزيارها .
ومنعت الناس من الاقتراب منها .

كثيرون من أهل « دراو » يتطوعون للماء الأزيار الضخمة لرواد المولد . .
كل قرية تعرف أزيارها وتشرب منها ، ويأتى الكثير من السقائين للماء ما يفرغ
منها . . لكن العادة جرت أن يترك الكثير من الأزيار فارغة فى الشتاء . . اليوم
انقلب الجو فجأة ولم يكن هذا فى الحسبان . . ريح « السموم » التى تأتى من
الجنوب تلمح الوجوه بالرمال الساخنة وكأنها مرت على آلاف الأفران . .
وصرخت امرأة فى صهى من « السوالم » قائلة :

- هات لنا الرجال . . يذهبون إلى الموالد والذكور يشربون هناك ، وتموت
نحن هنا من العطش ؟

وهرول الكثيرون من الصبيان يبحثون عن رجالات السوالم فى الزحام . .
وجاء بضعة رجال منهم ووقفوا يحذقون فى النساء ويدورون حول أنفسهم
وصراخ الأطفال يصم الآذان . . وهاجت امرأة شابة ، ورفعت ابنها الطفل إلى
أعلى ، وضرته بالأرض وهى تصرخ فى هستيرية :

- اسكت ! ليس عندى ماء ! اسكت ! ليس عندى ماء اسكت !
فأمسكت بها النسوة وخلصن الطفل من بين يديها . . وجاء رجال آخرون
وداروا حول أنفسهم كسابقهم . . ولوح أحدهم بيده النحيلة فى عصبية
وصرخ :

- لماذا تأتى النساء إلى الموالد ؟ . . ما الذى نكسبه منهن غير العار بين البلاد
ووجع الدماغ ؟ . . ثم ما الذى نفعله الآن بألف امرأة وألف بنت وألف طفل ؟
الله يلعن النساء فى كل كتاب ! . . المسافة بيننا وبين النيل ساعتان من الزمن

وهنا الناس لا أحد يسأل عن أحد . . والمقامون عرفوا أن الجوشاء فلم يأت
منهم أحد . . لماذا تأقى النساء لولا أن الرجولة انتهت من الدنيا وأصبحت
النسوان تحكم الرجال ؟

وولولت امرأة في وجهه وساعدتها بضع نساء وتعالى الصراخ !
وسمع الرجال جلبة خلفهم فالتفتوا ليروا « شمروخ » بعامته فوق رأسه
كالمنظلة التي عفرها الغبار !

صرخ في الجميع بصوته الخشن يسأل عما حدث ، فصاحت به مغربية
« بنت كذاب القبيلة » مستنجدة :

- الحقنا يا شيخ العرب شمروخ ! الحقنا يا كبير يا ابن الكبير يا زينة
قبيلتنا ، لا غيب الله صوتك !

ارتفع فكه إلى أعلى ، واحمرت عيناه ، واكتست ملامحه القوية بتعبير من
صمم على أمر . . رفع يده بأكامها الثلاثة إلى أعلى وصاح :

- جواي يصلك بعد خمس دقائق يا بنت أسياد الناس ! . . بحر النيل
نفسه أنا أنقله هنا !

واستدار يخترق الزحام ، حتى وصل إلى ميدان سباق الخيل . . وصرخ في
شباب من أبناء قبيلته طالباً منه أن ينزل من فوق حصانه ، فهبط الشاب
متزعجاً . . ووضع قدمه اليسرى في « الركاب » وجلس على السرج في ثقة . .
وفي عصبية ساق الجواد وسط الزحام والناس من حوله يتفزعون ويحدقون في
عامته باستغراب . . ولما ملك الفضاء انطلق بالجواد كالرياح ، في طريق يشق
حقول القصب حتى وصل إلى عشش كثيرة من البوص حولها عشرات
الجواميس بقرب النهر . . وخرج إليه رجال شباب رثة ، يرفعون رؤوسهم إلى

أعلى يحدقون فيه :

- أين كبيركم ؟ .. يقترب حالاً ويكلمنى لأن روحى فى مناخبرى !

رفع أحدهم يده إلى رأسه الذى يلفه بخرقه قديمة وقال :

- أنا يا شيخ العرب .. طلباتك ؟

- جهّز لى مائة قرية ماء .. أفتح عينى وأغمضها ، أجد القرب المائة

أمامى !

- حاضر .. القرية تكلفك ثلاثة قروش .. لأن أسعار المولد غير أسعار

الـ ..

صرخ فيه :

- أى مولد يا بنى آدم ؟ .. ألم تسمع عن شيخ العرب شمروخ زعيم قبيلة

السوالم ، أعظم قبيلة فى بر مصر ؟ أنا أدفع أربعة قروش فى القرية ، لكن

أغمض عينى وأفتحها ، أجد القرب المائة أمامى !

ودفع بكفه إلى فتحات الجلابيب الصوف الثلاثة بخرج حافظة نقوده ،

وهرول السقاءون من حوله يجهزون القرب فوق حميرهم القوية .

ورأى أمامه خمسين حماراً فوق كل حمار قربتان .. فقال محتجاً :

- ما هذا ؟ .. متى تصلون إذا كان الحمار الواحد يحمل قربتين ؟

فتحوا أفواههم يحدقون فى هذا الرجل الغاضب بعماته الضخمة ، والجواد

يدور به حول نفسه ، ويصهل - هو الآخر - ويدق الأرض بموافره ، وصرخ

فيهم بلهجة أمرة :

- حلّوا جواميسكم وضعوا عليها بقية القرب .. ثم إن الخمسين حماراً

لا تسترعى الأنظار كما يجب .. أنا أريد من الموكب أن يزلزل المولد كله عندما

يدخل ! .. أنا أدفع فى القرية الواحدة خمسة قروش !
ودفع بيده إلى فتحة جلاليه الثلاثة وتحرك مكوب ضخيم طويل أوله حمير
وآخره جاموس ، وهو يركض بجواده فى المقدمة والمؤخرة والوسط :
- أنت أسرع .. وأنت أمسك القرية جيداً .. وأنت ، هل تريد
مساعدة ؟ .. أسرعوا .. وليكن فى علمكم .. عند دخول المولد ، كل واحد
منكم يخرج من فمه صوتاً « أر .. أر .. أر » الحماره كى ينهى الحمار .. سأعطيكم
إشارة خاصة ، عندما أريد للحمير أن تنهى .. أريدها أن تنهى كلها دفعة
واحدة وفى لحظة واحدة مفاجئة .. يجب أن يكون المكوب مثل يوم
القيامة ! .. لا بد أن يجعل أهالى القرى يتحدثون عنه سنة كاملة بعد عودتهم
إلى قراهم (فاهمين) ! .. أنا أدفع فى القرية الواحدة ستة قروش !
وصمت المولد فجأة حينما فوجئ بخمسين حماراً تنهى كلها مرة واحدة ،
يتقدمها رجل بعمامة ضخمة يختال بجواده فى مقدمتها ، يصدر الأوامر هنا
وهناك !

وفغر طالب جامعى من بندر كوم امبو فاه وقال لزميله ذى السوالف
الطويلة :

- تفرج على منظر أهالى النجوع البعيدة وقرى غرب النيل ! لوجاء بعض
الصحفيين الأجانب هنا لفضحونا فى صحف أوروبا ! . انظر إلى الرجل الذى
يضع الكفن الأبيض على رأسه ، يصول بحصانه بين القرب والحمير
والجاموس ، ويلوح يديه ، كأنه الماريشال رومل يقود مدرعاته فى صحراء
العلمين .. فضحونا الله يفضحهم !

وشرت نساء « السوام » حتى ارتوين .. وزاد الماء ، فتوضأت العجائز

وأقن الصلاة جالسات . . وبدأ الأطفال يلعبون . . وغسلت البنات
وجوههن ، وعادت إليهن الابتسامات . . فقررن أن يذهبن إلى سباق الخيل
يتفرجن على الفرسان بعائتهم ذات الشراشيب الملونة .

• • •



- أنا مسكين ! من أين أملك المال لأتبرع ؟ .. أنا مسكين !

وقال له شيخ قبيلته :

- حرام عليك يا شيخ عبد الغنى .. المسجد بيت الله .. حتى بيت الله

لا تريد أن تتبرع له ؟

هز كفيه ثم حك عنقه المغبر وفافأ :

- لكن ، لكن ، لكن ، ولماذا أتبرع له ؟ .. قصدى ، قصدى ،

قصدى ، وما الذى يحتاج إليه الجامع ؟ .. أنا رأيت بحالة جيدة !

- سقفه قديم .. سنعبد سقفه ونرتفع بمجدرانه قليلاً .

- وهل شكا لكم هو وقال لكم سقنى قديم ؟ .. هل قال جدرانى

قصيرة ، ارفعوها لى ؟ .. لو كان السقف وقع ، كنت عذرتكم .. لكن

السقف سليم والحمد لله ! فلماذا حكحكّة الكلام وخلق النفقات وتبديد المال فى

هذه الأيام السوداء ؟

كانا يجلسان على جسر قناة معشوشبة عليها صفان من شجر الحناء .. القناة

تشق المزارع الخضراء ، ثم تدخل فى غابة صغيرة من النخيل ، وتخرج منها

لتدخل تحت جدار جنينة يفوح منها عبير ورق المانجو .. ثم نعمة تجتر راقدة

بالقرب منها وحملاتها تتقافز حولها فى مرح .

ضرب شيخ الجواير قفطانه الشاهى بكراسة صغيرة فى يده وقال :

- أنت عارف قبيلة السوالم تبرعت بكم ؟ . . قبيلة السوالم التي لا تملك
خُمس أرضنا تدفع النصف وحدها قبالة البلد كلها ، وأنت زعيم الجوابر ترفض
التبرع ؟

- وكيف أتبرع إذا كنت لا أملك المال الذي أتبرع به ؟ . . أسرق ؟ . .
أنهب ؟ . . مالى أنا ومال قبيلة السوالم وقبيلة الكواسر ؟ . . ثم لماذا أتبرع فى
شئ لا يخصنى ؟ . . هل رأيتنى أصلى فى حياتك ؟ . . هل دخلت جامعكم
من قبل ؟ . . أنا أتبرع لكم وأنتم تصلون ؟ أما عجائب والله !
وكظلم شيخ الجوابر غيظه . . تغلبت عليه دماثة قومه ، فقام صامتاً .

* * *

دخل معوض البيت فرأى أباه وأمه يجلسان على (برش) فى الشمس لصق
الجدار . . الأب يصفّر جزءاً من مقطف جديد ، والأم تطعم الكتاكيت . . أدار
الأب رأسه وأعادده بسرعة ، وتوقفت الأم عن عملها وإبسمت له فى حنان :
- حمداً لله على سلامتك يا فارم . . قرأت لنا الفاتحة فى الشيخ عامر ؟
تلعم الشاب . . عمامته معفرة وعيناه زائغتان . . أحست به الأم . . قامت
ودخلت حجرة الموقد . . فوق العتبة أشارت إليه دون أن يحس زوجها . . ألقى
معوض نظرة على أبيه وقال :

- سلام يا أبى .

لم يرفع الأب رأسه . . أصابعه الرفيعة كأصابع المومياء أسرع فى عملها ،
وتحرّكت شفاته دون صوت .

فى حجرة الموقد وقف معوض قبالة أمه . . حدق فى وجهها قليلاً ثم جلس
على ركبتيه . . نكس رأسه وانخرط فى بكاء مكثوم . . احتضنته المرأة فى فرح ،

وقالت له : أفرغ همك على صدرى ! تمتم وقافاً وعينا المرأة الجميلتان تتسعان شيئاً فشيئاً . . أطلقته من بين يديها وضربت صدرها وقالت بصوت خافت فرغ : « بيتى خرب » !

وقفت المرأة وتلفتت حولها ، ثم خرجت وجلست بجوار زوجها . . مضت برهة طويلة وهى صامته ، على حين كانت أصابعه العظمية تعمل فى عصبية وقد ضيق عينيه يترقب أمراً خطيراً . . شهقات ابنه تصله من حجرة الموقد ، وغضبه يتجمع شيئاً فشيئاً . . لكنه ترك ما فى يده ، وارتعش عندما بدأت زوجته تروى له ما قاله ابنه . . تفهقر إلى الوراء ، وألصق ظهره بالجدار . ودار بيديه حول ركبتيه فأصبح كالكرة يظل منها رأسه الصغير المدعور . . وصمتت المرأة . . ومرت فترة قبل أن يمالك نفسه وينفجر :

- حيلة . . حيلة عملتها بنت المقطوع فى ابنك الحمار . . لكن على من ؟ . .
إن كانت هى زرقاء الناب فأنا أيضاً أزرق الناب ! وما دامت لم تجد من يربها فعلها أن تتحمل نتيجة قلة أدبها !

- وابنك ؟

- ماله ؟

- وإذا قتله السوالم ؟

- مالى أنا ؟ . . هل قلت له يلبس قصان الكشمير وشيشان الكريب ويدور

مع بنات المقاطيع الحسرانات ؟

قامت المرأة فرعة . . تناولت عباءتها ، وخرجت حافية ، كما تقضى التقاليد على الأم الثكلى ، وانجهت إلى بيت أخيها تستنجد به ، وصورة ابنها تتخيل أمامها مزرجة فى الدماء !

وضَّحَ المجلس في ديوان شيخ العرب شمروخ بالقهقهات . . العمدة والشيخ
علام والمأذون وشيخ الكتاب وثلاثة من مدرسي المدرسة الابتدائية وبضعة
شيوخ وشبان من القبيلة . .

ووقف الشيخ علام ، وتقدم من شمروخ وأمسك بعمامته وقبلها وهو
يقول :

- بارك لله فيك يا عمود قبيلتنا . . سمعت كلامنا وأرحت قلوبنا !

ثم التفت إلى العمدة وقال له :

- شمروخ طول عمره قلبه أبيض . . إذا غضب فتل بحر النيل يغرق العالى

والواطئ ، وإذا هدأ فتل نار القش ! . ما إن قلت له أمام مقام الشيخ عامر

رضى الله عنه : « رد البمين واصرف النظر عن موضوع ابن عبد الغنى الجوابرى

حتى قال لى : حاضر يا شيخ علام » . . طول عمره قلبه أبيض بارك الله فيه .

ودارت أكواب الشاى على الجالسين ، وتحدث شمروخ باستفاضة عن

مغامراته التجارية في بلاد الله الواسعة . . يشتري البلح من أسوان ليبيعه في

القاهرة ، ويشتري الجمال من السودان ليبيعه في سوق « دراو » وبين كل رحلتين

يقضى شهرين في نجمة الذى يعشقه ، لينفق كل ما معه باستثناء رأس المال .

وجاء ابن شمروخ الصغير بطاقيته الملونة وقبضه الأبيض الأنيق وهمس

لأبيه :

- كلم أمى .

قام شمروخ ودخل البيت من باب الديوان المفضى إلى البيت . . ثلاثة بيوت مستقلة ، لكل بيت باب صغير يؤدى إلى ممر يفضى إلى باب الديوان . . دخل البيت الأوسط ليجد أمامه أم بتول تجلس مع زوجته الوسطى المحببة ، والمرأتان تحدقان فيه بذهول . . أومأت له زوجته أن يجلس ، فجلس على سرير من الحبال ، وجلست زوجته بين يديه فوق برش مفروش .
أم بتول جلست بعيداً على الأرض ، وظهرها للجدار ، وبين يديها قشة تحطمها في عصبية ورأسها منكس .

مضت زوجته تتحدث إليه بصوت خافت ، ورأسه بعماته الضخمة ، يميل على صدره شيئاً فشيئاً وهو يتساءل بعد كل جملة : « هه ؟ . . هه ؟ » بطريقة عصبية كأنه لا يسمع جيداً ، وزوجته تتلعم وتعيد عليه كل جملة من جديد .
التفت إلى أم بتول في حدة . ثم إلى زوجته ثم إلى أم بتول مرة أخرى وقال لها :
- ضحكك عليها !

رفعت أم بتول رأسها وقالت ضارعة :

- أنا جئت لك لأنى أعرفك . . لا تنفضحنا الله لا يفضحك .

ثم أمسكت بطرف عباءتها ومسحت دموعها ، وعادت تنكس رأسها وتحطم قشة جديدة .

ووقف . . سار بضع خطوات إلى الأمام واستدار يحدق في المرأتين صامتاً . . يدخل يديه في جيوبه ويخرجها ، ويضغط عمامته إلى أسفل ، وينظر إلى السماء تارة ، وإلى طرف حذائه تارة .

فجأة جلس على الأرض وتمدد على جنبه وأسند رأسه على كفه وكوعه

مغروس في التراب .

لمح ابته في نهاية البيت تنظف زجاجة الفانوس الكبير استعداداً لإضاءة
الديوان ، والسماء امتلأت بطيور « أبو قردان » عائدة إلى أعشاشها .

هب فجأة واقفاً ، وجلبابه الأزرق الخارجى تحول نصفه الأيسر إلى لون

ترابي ، وقال لأم بتول بصوت كالضحك :

- أبوك وأبوتك يا كلبة يا بنت الكلب !

قالت له زوجته في عتاب رقيق :

- شمروخ . . المرأة اختارتك أنت من بين كل رجال القبيلة .

التفت إلى زوجته في حدة وقال لها بصوت خافت :

- أبوك أنت أيضاً يا كلبة يا بنت الكلب !

ارتفع صوت زوجته قليلاً في عتابها :

- شمروخ . . أين عقل شيخ العرب زعيم جماعته ؟

رفعت أم بتول رأسها وقالت في رجاء وبصوت موزون كأنها تلقى بيتاً من

الشعر :

رجال الشدايد . . يارب خليهم .

ثم أردفت :

- الذين يسترون على مكسورات الجناح هم : « رجال الغندرة الزينة »

وليس (رجال فتواتنا وزيدونا) !

نفض جلبابه ، ودخل إحدى الحجرات بلا سبب ، ثم خرج ونظر إلى

المرأة ، ثم إلى زوجته ، ثم إلى المرأة من جديد وسألها :

- من عرف ؟

- الله وأنت وزوجتك .

التفت إلى زوجته قائلاً في حدة :

- أضربك بالرصاص لو قلت لأملك !

رفعت زوجته نظرها إليه في عتاب فاستطرد :

- أنا عارف أملك ! .. هي أيضاً أضربها بالرصاص لو عرفت !

لوحث له زوجته بيدها غاضبة ، وأدارت رأسها بعيداً في احتجاج صامت ، فقال للمرأة :

- اذهبي إلى بيتك يا امرأة (واكفي على الخبر ماجور) ، والمكتوب على الجبين تراه العيون !

* * *

قهقه المجلس بصوت عال وشمروخ يتقدم منه . . وقال العمدة لأحد المدرسين وهو يشير إليه :

- بالله عليك تعيد الحكاية لشيخ العرب يا أستاذ .

وعدل المدرس من وضع جاكته فوق جلبابه ذى الباقة القاهرية وقال باسمًا :

- مرضت حفيدة الشيخ علام فأرسل في طلب الطيب . . وكان الطيب قاهرًا طيباً لم يكمل أسبوع واحد منذ وصوله بلدنا . . كشف على الفتاة وأعطاهها حقنة ، وأوصى بالدواء وطمانهم وذهب . . وما إن خطا بضع خطوات حتى أغمى على الفتاة ، فهول بعضهم وأعادوا الطيب . . وكان الشيخ علام ساعته يلطم خديه ! وجاءت على الصباح مغربية بنت كذاب القبيلة وسألت الشيخ (علام) عن الخبر ، فأشار إلى الطيب وقال في انفعال :

- الطين . . تطينت . . أرسلنا للمطين . . جاء وطينها . . لكنها تطينت . .
فجريت وراء المطين . . وها هو ذا جاء ليطينها !
وكان الطبيب يفرغ فاه ويحدق في وجه الشيخ علام دون أن يفهم شيئاً . .
فقط هو « يحس » أن الكلام عليه !
وقهقه العمدة والمدرسون وشاركهم الشيخ علام بضحكته مثل كأكأة
الدجاجة . . لكن العمدة قطع ضحكته فجأة حين وقع بصره على وجه شمروخ
المكفر وعينه الحمراءوين :
- مالك يا شمروخ ؟
صمت المجلس ، وتطلعت الأعين في دهشة إلى وجه شمروخ واكت
الوجوه بالتجهم . . رفع شمروخ يده بأكامها الثلاثة وصرخ :
- طلاق ثلاثة من نسوانى الثلاثة . . إذا لم يأت عبد الغنى الجوابرى بنفسه
يخطب بتول بنت محمد على السوالى لابنه - أخرب البلد علينا وعليهم !
صرخ فيه الشيخ علام :
- ماذا حدث باسم الله ؟ . . من يكون ابن الحرام الذى لعب بعقلك
وجعلك تغير رأيك ؟
- طلاق ثلاثة من نسوانى الثلاث . . إذا لم يصلنى رد من قبيلة الجوابر قبل
ثلاثة أيام - أجعل النجوع كلها تبكى على الموتى !
كان طائه المسموح كصوت اللبن فى المخض . . وقام الشيخ علام
يواحضنه ، لكنه دفعه بعيداً عنه وصرخ فى بضعة شبان فى المجلس :
- نبايتكم ! . . جهزوا نبايتكم وهاتوا الحراب !
والتفت إلى ابنه قائلاً :

- قل لأملك تجهز لى محلاة الرصاص ، وتنفض التراب عن البندقية !
وضاعفت الشمس الغارية من طول ظلال الشبان يهرولون فى مرح هنا
وهناك فى النجع . . يتنادون ويبشرون بعضهم بعضاً بيوم رائع تفرقع فيه
النبايت ، وتتحطم الرؤوس وتظهر شجاعة الشجعان ، وتزول الرتابة المملة . .
أكثرهم ممن لم يكملوا المرحلة الابتدائية ، وقراريط آبائهم لا تأخذ غير القليل من
وقتهم ، والمصانع على الشاطئ الآخر تطلب حملة الشهادات ، وأهل الخبرة
الصناعية . .

وقال العمدة بلهجة هادئة :

- أنت كنت معنا فى أمان الله ، ورددنا لك اليمين . . قل لنا عن الذى
جعلك تغير رأيك ، لكن على شرط . . بدون غضب !
- الجواب يقولون ، قيلتنا مشكوك فى نسبها ، ويمنعون أولادهم من الزواج
من بناتنا ، وأنتم جميعاً تحولتم إلى مدهنتين !
غضب العمدة . . وقف وضرب صدره قائلاً :
- أريد أن أعرف . . هل أنا الحكومة هنا أو أنت ؟
ضرب شمروخ صدره :
- أنا !

قال العمدة بصوت عال :

- أنا أقدر أكتب ورقة صغيرة لحضرة جناب المأمور أقول فيها : إنك تسب
الفتنة فى البلد وأضعك فى السجن !
رد شمروخ مزجراً :

- أنت عمدة لأن ثلاثة من قيلتنا كتبوا أرضهم باسمك كى تصبح عمدة !

أما أنا فإني عمدة بالذراع !

- أنت كذاب في كل ما قلته عن حكاية منع أولادهم من الزواج من بناتنا
ولابد أن في رأسك أشياء أخرى لا نعرفها . . لكن والله والله والله . . إذا لم
تقصر الشر أضعلك في السجن ؟

صرخ الغلام الأبوسى ابن الرابعة عشرة الذى أعطاه شعروخ عمامته في
العمدة :

- وأين البلد الذى يستطيع حمايتك منا إذا أرسلته للسجن يا عمدة ؟ . .
لو كنت عمدة بحق وحقيق ، أرسله للسجن ثم تفرج على ما سيحدث لك !
والثفت العمدة إلى الغلام الذى كان يحمل نبوتا أطول منه وقال له وهو يهز
رأسه فى أسف :

- أنا أستحق كل ما يجرى لى ؛ لأننى وافقت أكون عمدة عليكم أنتم
يا همج البلاد !

ثم اندفع إلى الخارج ، وتبعه المدرسون ومعهم أكثر شيوخ القبيلة .
وجلس الشيخ علام قبالة شعروخ ، وقال له فى هدوء باسم :
- قل بسم الله الرحمن الرحيم يا عمود قبيلتنا الله يبارك فيك وفى
ذريتك . . كل شيء بالهدوء يمكن أن

قاطعه شعروخ بلهجة غاضبة :

- لا أريد أن أسمع . .

وقف الشيخ علام بسرعة وخطا إلى الخارج وهو يقول فى انفعال :
- أنا محقوق ؛ لأننى أكلمك أنت يا مجنون ، يا مر اللسان ، يا ابن زينب
المطينة !



تجمع شيخ الجواير - باستثناء والد معوض - في ديوان شيخهم ،
يتشاورون إلى منتصف الليل . . واتفقوا على أن تهديدات « شمروخ » لا تعنيهم
في شيء ؛ لأن الزواج بالرغبة وليس بالقوة . . وقال شيخهم ضاحكاً في
مرارة :

- هذه أول مرة نسمع فيها عن حكاية مثل هذه يا عرب . . أهل
(العروسة) هم الذين يصممون على تزويج ابنتهم بالقوة من ناس
لا يريدونهم . . عجائب !

وضحك المجلس . . وقال شيخ آخر له حلية صغيرة :

- إذا كان ابن عبد الغنى له رغبة في الزواج من البت ، فليأفر إلى القاهرة
ويعمل هناك ، ثم يعود بعد بضع سنوات ويتزوجها ، مادام أبوه لا يوافق .
وفضوا مجلسهم بعد أن أوصوا أولادهم أن يأخذوا حذرهم ، ولا يذهبوا
إلى الحقول إلا في جماعات تحمل الناييت والخراب !

ورفض خال معوض أن يتدخل في الأمر . . قال لأخته في إعياء :

- أنا من قبيلة صغيرة تعيش بين الغوليين الكبيرين - الجواير والسوالم -
بالصبر وطول الصمت . . أسأل الله تعالى أن يعنى بصرهم عنا لنقضى أيامنا في
هذه الدنيا مستورين .

ولما قالت له أخته إنها تخاف على ابنها طمأنها . . قال لها : إن السوالم لم

يعرفوا تفاصيل ما حدث بين البنت والولد . . فلو عرفوا لقتلوا أولاً ، قبل أن تمتد أيديهم إليه . . وحذرهما من الخوض في هذا الأمر مع أحد لكيلا يتسرب الخبر إلى السوالم ويتعرض ابنها للخطر .
وسهرت الأم الليالي قلقة . . لكن ، لما مر أسبوع دون أن يحدث شيء بدأت تطمئن .

* * *

دفع معوض باب بيتهم ودخل . . وجد في انتظاره ابن خالته « سلامة » ابن الشيخ علام . . تعانقا في حرارة ، وجلسا يشربان الشاي . . فرح معوض بابن خالته . . زيارته تدل على مدى صداقته وإخلاصه . . زيارة لها معناها وقيمتها لأنها محفوفة بالمخاطر . . صاحبها خائن في نظر قبيلته ، لأنه يتصل « بالأعداء » في أيام « التعبئة العامة » . . الويل له لو انكشف أمره . . حتى لو كان أبوه وغالية قبيلته ضد هذا التوتر ، إلا أن هذا شيء ، ومثل هذه الزيارة شيء آخر . . أقل ما يصاب به (سلامة) من هذه الزيارة وصمة تجعله في نظر قبيلته أخط من الجاسوس في نظر مواطنيه .

ضاحك معوض ضيفه وهش له . . وابتم كل ما في المرأة لابن اختها بما في ذلك عيناها الجميلتان . . وقال سلامة لمعوض :

- احترس لنفسك . . شمرخ يحرض الشباب ويقلب النجع . . أنا لا أفهم لتصميمه هذا معنى . . كنت أفهم أن تصمم أنت على الزواج . . أما هو . .

قاطعه معوض :

- أنا أقول لك عن الحقيقة يابن الخالة . . أنت مأمون على السر . . .

قاطعته أمه وهي ترسل إليه نظرة محذرة :

- معوض .. اسكت .

رد معوض في صوت متهدج :

- سلامة أخى وصديقى قبل أن يكون ابن خالتى .. أقول له عن الحقيقة

وأستشيريه فيما أفعل .

وروى له ما حدث في يوم المولد وهو يقسم له أن الأمر حدث دون أن

يصدق حتى هذه اللحظة أنه حدث .. وتجهم وجه سلامة قبل أن يكمل الآخر

حديثه .. قذف بكوب الشاي من يده إلى مسافة بعيدة ، وأطبق يديه على

عنق معوض .. أوقعه على ظهره وجثم فوقه وغرس أسنانه في عنقه !

ولولت المرأة بصوت خافت جداً ، وجثمت فوق ظهر ابن اختها ، وغرست

أسنانه في عنقه من الخلف .. صرخ سلامة ، وهب واقفاً ، فهجمت عليه

المرأة ودارت يديها على ساقيه من الخلف واسماتت .

قام معوض ، فطلبت منه أمه أن يساعدها في إجلاس سلامة ، وجلس

الأخير وهو يحدق فيها بكراهية ويلهث .

وركعت المرأة أمام ابن اختها تتضرع :

- أملك أنا يا سلامة .. اكتم الخبر ، الله يجليك وبارك في شبابك ..

معوض الحيلة والسوالم يقتلوه ، وأقعد أنا حزينة طول العمر .. أملك أنا

يا سلامة .. أَرْضَعْتِكَ مع معوض من « شطرى » وشطر الأم (غالى) .. اكتم

الخبر ربنا يبارك فيك وعيبك للحكام والعريان .

كان الشاب يلهث دون أن ينطق .. يقلب عينيه في الأم مرة وفي الابن مرة

ويلعب لعابه في عمر والأم ماضية في تضرعها .



بتول تحولت إلى (إنسانة) بلهاء . . مخلوق ذاهل تقاطيع وجهه تدل على أنه لا يعى شيئاً . . إذا وقع بصرك على الوجه بشفتيه المنفرجتين قليلاً ، وعينيه الواسعتين تدوران بلا معنى - تملكك رغبة في البكاء .

ثلاثة أيام قضتها لا تخرج من البيت . . تجلس في حجرة داخلية ووجهها للجدار . . لا طعام ولا شراب خلال الأيام الثلاثة . . أمها تجلس بالقرب منها تبكى في صمت ولا تشرب غير الماء . . بين لحظة وأخرى تتمنم الأم بكلمات شبه موزونة مثل : « قَسِّمُوا النوايب . . شِلْتُ لى نايب » . . مرات ترفع رأسها إلى أعلى وتقول : « هو قادر » . . أحياناً تحاور نفسها قائلة : « قال القلب : آجى ؟ . . قلت له : آه ! » . . أطفالها الخمسة ينظرون إليها في دهشة شديدة ، وهى تنظر إليهم باسترابة . . لم تخرج إلى إطعامهم إلا بعد أن رأت أن صراخهم سيعرضها للفضيحة . . تجلس بجوار بتول طوال النهار . . تعاملها بحنان غريب !

في صباح اليوم الرابع أمالتها على صدرها ، وفتحت فيها بالقوة ، وسكبت فيه كويًا من الشاى باللبن ، وأخرجتها إلى فناء البيت . . لا تفارقها أبداً . . عند النوم ترقدها في حضنها . . تغلق عليها باب الحجرة الداخلية ، وتسندة بنبوت زوجها الذى لا يأتى . . تستيقظ عند أقل حركة وتدور بذراعها على ابنتها . . أحياناً تجلس بجوارها على السرير ، في منتصف الليل ، وتعدد على موتها

بصوت خافت وتبكي . . في النهار تحديق في جدران الفناء ، كأنها تتوقع أن يعتليها أحد فجأة . . فكرت أن تذهب إلى زوجها وتخبره بما حدث ، لكنها خافت على ابنتها .

تسامعت الجارات (بمرض) بتول وجئن للزيارة . . فوجئن بهذا المخلوق الذاهل الذابل لا يتحرك ولا يتكلم ويحديق في الفضاء بلا معنى . . قالت إحداهن : لا بد أنها أصيبت بضربة شمس عندما تعرضت للعطش في مولد الشيخ عامر ، واقترحت أن تغلى لها بعض الأعشاب مثل (حلف البر) . . وافقتها أم بتول لكيلا تشك في سبب مرضها . . قالت جارة أخرى : لا بد أن شيطاناً عشقها و « تلبس » جسدها ، واقترحت أن تحضر أحد المشايخ ليتلو عليها القرآن ، فوافقتها والدة بتول أيضاً . . لكنها ، بعد انصراف الجارات ، تعود إلى الجلوس بجوار ابنتها ، والبكاء على موتها ، والتحديد في أعلى الجدران !

* * *

أدخل (معرض) يده في فجوة سور الجنينة وأخرج خرقة قديمة . . فتحها وأضاف إليها بضع ورقات مالية . . فرش الخرقة أمامه على الأرض ، وانهمك يحصى ما فيها . . قال لنفسه : لم يبق من المهر غير عشرين جنيهاً . . القمر ينير الجنينة حوله ، وظلال أشجار المانجو والنخل تملأ المكان خطوطاً سوداء . . فجأة أحس بحركة ، فرفع رأسه ينظر إلى أعلى السور . . قبل أن يتنبه جيداً ، فوجئ بجسم يسقط بجانبه . . عمامة ضخمة تلتصق بوجهه ، يطل منها وجه شموخ الغاضب . . انعقد لسانه وظن نفسه يحلم . . وجهه المستطيل تجعد أمام الوجه العابس ، كالفرخ الصغير أمام الثعبان الهائل . . أحس بحركة وراءه فالتفت في فزع ، رأى بضعة شبان يتقدمون منه . . أيديهم ممدودة وجذوعهم تميل إلى الأمام . . أيد كثيرة أطبقت عليه ، وفتحت فمه بالقوة وأدخلت به طاقة مكورة . . أحضر أحدهم ناييت كثيرة وفرشها على الأرض كالحصيرة ، وأرقدوا (معرض) فوقها . . ألصقوا ناييت أخرى بجانبه وفوق صدره ، وداروا عليه وعليها بالحبال !

أحضر أحدهم جوالاً طويلاً مؤلفاً من ثلاثة أجولة مغطاة بعضها في بعض وتعاونوا حتى أدخلوه فيه . . أحدثوا فتحة صغيرة في أعلى الجوال قبالة أنفه . . حملوه فيما بينهم ، والتفوا بسوالى يدخل بحماره من باب الجنينة . . وضعوه

فوق الحمار في وضع أفقي وركب أحدهم وراءه . . بدا منظر الجوال كالتابوت
الفرعوني .

انطلق به راكب الحمار وسار الباقون يحرسونه على البعد .

* * *

اخترق راكب الحمار حيثان النخل ، وجسور الحقول ، خوفاً من ضوء
القمر ، وحذراً من نجع الجوابير الذي في الطريق . . بعد أن قطع شوطاً ،
اعترض طريقه شاب من أصدقائه « الجوابير » . . قال له مهلاً :

- أنت تحمل (قصب) طبعاً . . أعطني مما سرت يا حرامي .

وتلعم راكب الحمار . . واعترف له أنه سرق القصب فعلاً ، ووعد أنه
يحضر له نصيبه بعد عودته إلى البيت . . لكن الشاب أصر على أن يأخذ نصيبه
الآن ، واقترب ووضع يده على الجوال ، فاصطدمت كفه بالنبايت وصرخ في
نشوة :

- الله الله ! قصب جيد من نوع « القزاز » . . نزل حملك وأعطني

نصيبى !

قبل أن يكمل جملة فوجئ بيد تمسكه من الخلف . . عندما حاول تخليص
عنقه ، رأى وجه شمروخ الغاضب يصرخ فيه :

- أنت وهو سرقنا حمارى بالصوص ! . . أمامى إلى العدة !

- أنا قابلته هنا والله يا عم شمروخ . . والله لم أر حمارك ولا أعرف أنه
سرقه . . الحرامي هو لا أنا .

- أنت لص وهو لص . . أنت سر أمامى بحمارك ، وأنت تعال معى
بصفتك شريكه .

ويبدو أن « شمروخ » نسي نفسه ، واندمج في دوره . . فقد صمم على أن يصحب الشاب إلى العمدة برغم تضرعه إليه . . لم يفت إلى نفسه إلا بعد أن تلفت حوله فلم يجد راكب الحمار ، بل وجد أحد شبان قبيلته يقترب منه ويهمس له :

- نيت نفسك ؟

فترك الشاب فجأة ، وركض هذا الأخير بأقصى سرعته وهو لا يصدق أنه نجح .

* * *

دخل الحمار بحمله في بيت مهجور في أقصى نجع السوالم . . حلوا وثاق معوض في حجرة بلاسقف وأوقفوه أمام جدار . . قال له شمروخ قبل أن يخرجوا الطاقية من فيه :

- لو تفوهت بكلمة . . أقطم رقبتك .

لم يستطع معوض أن يقف . . ترك نفسه فسقط جالساً . . قال له شمروخ وهو يجلس قبالة !

- سأقيم لك عرساً كبيراً جداً وأدخلك على بتول ! موافق ؟

لم يرد . . يبدو أنه لم يكن يتوقع هذه النتيجة ففغرفاه دون فهم . . صرخ فيه وهو يلكمه :

- موافق يا ابن الثعلب ؟

- أنا والله يا عم شمروخ .

كان يتكلم بصعوبة . . كأنه قضى بضعة أشهر مريضاً . . لهجته تدل على أنه لم يفهم ما عرض عليه ، وبدأ يدافع عن نفسه .

- الحكاية أننا ذهبنا نזור «كهрман» . ثم جاءت لى بالعرقى . . وبعد ذلك . . .

لكم قائلًا :

- اخرس !

ثم التفت إلى الشبان ، وكلف كلاً منهم إحضارَ شيء ، فخرجوا جميعاً وهم ينظرون بعضهم إلى بعض فى شك . . انتظر حتى ابتعدوا وقال لمعوض بصوت كالقحيح :

- كهрман منْ يا بن الثعلب ؟ . . الموضوع الذى تعرفه ، سرينى وبينك ! لو أخبرت به أى إنسان سأقطم رقبتك ! فاهم يا بن الثعلب !
- فاهم يا عم شمروخ .

- سأقيم لك عرساً نتحدث عنه البلاد الأربعة التى تجاورنا . . أنت تريد بتول . . أليس كذلك ؟
- أريدها يا عم شمروخ .

- سأقول للناس : إنك هربت من أبيك . ودفعت لى المهر . فاهم ؟
- أنا كنت أجهز المهر . . لكننى كنت أخافكم !

ودخل أحد الشبان ، فأشار شمروخ لمعوض أن يصمت . . ثم أشار للشاب أن يساعده ، فى إيقاف معوض وإصلاح ثيابه وعمامته . . لكن الشاب وقف ينظر إليهما دون أن يتكلم . . ودخل بقية الشبان وهم يعقدون ما بين حواجبهم . . وقال أحدهم :

- أنت اتفقت معنا أن نقتله يا عم شمروخ . . أليس كذلك ؟
- ولماذا نقتله يا بن أخى ما دام الرجل يحبنا ويريد أن يناسبنا ؟ . . ثم

ما الذى فعله فى دنياه هذا المسكين حتى نقتله ؟

- لكنك قلت لنا : سنقتل (معوض) ، فذهبنا معك وأحضرناه . !
وقضى شمروخ وقتاً طويلاً فى إقناع الشبان بأن كل ما يهمه من الأمر
هو خوفه من طلاق زوجته بعد أن حلف أن يزوجه بتول ! فافتنعوا إلا أحدهم
أصر على قتله وخرج مغضباً . . وخرج شمروخ وراءه بسرعة ، وأعلن للنجم أن
« معوض » جاء بنفسه لخطبة بتول ودفع له المهر !

* * *

- ومن يكون شمروخ ؟ .. من يكون ابن زينب العرجاء تدور بطلبها على البيوت تشخذ اللقم ، حتى يتحكم في بنتي ويزوجها دون أن يستشيرني ؟ وخرج النجع برجاله ونسائه يتفرج على محمد على السوالى عارى الرأس ، بقميص يصل إلى ركبته وسروال أبيض ، يمسك بنوت طويل ، ويتحزم بعامته ، دلالة على أنه سيقا تل حتى الموت !

كان ضيلاً نحيلاً أحمر شعر الرأس والشارب .. يبدو من لونه أنه كان أشقر ، فلفحته شمس أسوان وحولته إلى اللون البرونزى .. لم يكن له أهل في القبيلة حتى الدرجة الخامسة .. يملك قارباً صغيراً لصيد الأسماك محبوب به نهر المنطقة .

- هل أنا مت . مدفون في الجبانة ؟ .. بنتى أنا تتزوج من غير ما أعرف ! .. وافرضوا أنني هجرت نجمعكم .. نجع اللصوص والشحاذين وقليل الأدب ! هل معنى هذا أن أسمع كفىرى أن دخلة بنتى بعد يومين ؟ .. هل حدث مثل هذا في كل بلاد المسلمين يا عرب ؟ .. واحد يسمع من الناس أن بته ستتزوج ولا يعرف حتى اسم العريس ؟ .. في أى زمن نحن ؟ وحرصه أكثر الواقفين .. ولا سيما الكبار في السن وعلى رأسهم العمدة والشيخ علام . والذين رأوا في وجوده ذريعة للتدخل :
- آخر زمن يا محمد يا على ! نحن كنا ستتدخل طبعاً ، لكننا انتظرناك ..

ماذا تقول القبائل والقرى حولنا إذا عرفوا أننا نزوج بناتنا غضباً عن عرسانهن ؟ . . لكن الحمد لله أنك وصلت وفي استطاعتك إيقاف هذه المسخرة !

وسار الموكب وراءه حتى وقف أمام بيته الذي تفصله ساحة واسعة عن مقدمة ديوان شعروخ . . ووقفت أم بتول فوق عتبة بابها . . على رأسها طرحة سوداء وعيناها زائغتان . قالت لزوجها :

- امش من هنا يا شغل النسوان يا مخرف . . أنت لا ترحم ولا تترك رحمة ربنا تنزل !

- رحمة ربنا يا ناقصة يا بنت الناقصة ؟ . . أنت أيضاً موافقة على زواج بتك من واحد أحضره في شوال !

- هو جاءنا برجليه . . أراد أن يتحبب فينا ويتنسب قبلناه .
- ينسب يا بنت صانعة الأفران ؟ على الطلاق منك أنت ، ومن زوجتي الأخرى التي ظفرها أحسن منك ، أن عريس بتك جاءوا به داخل شوال !
- لكنه سينامبنا وقبلناه !

- ومن الذي يقبله بمنقارك هذا الذي يشبه منقار شيخ الغفر . . أنا الرجل أو أنت ؟ . . أنا سأقيم هنا ابتداء من اليوم . . وأى رجل يحد في نفسه الشجاعة لأخذ بنتي بالقوة فليأت !

وجلس على الأرض أمام عتبة بيته ، ونبوته في حجره ، ويداه حول ساقيه الرفيعتين كمودي البوص اليابس !

وجلس بجواره العمدة والشيخ علام وعدد كبير من شيوخ القبيلة وخرجت صوافي الشاي من البيوت القريبة تدور عليهم ، والابتسامات الشامطة في

« شمروخ » على كل الوجوه . . والشيخ علام يصفق بيديه ويطلق ضحكته
ككأكاة الدجاجة ويقول في تعد :
- نشوف من يقدر « يطبها » على الثاني !

• • •



اجتمعت قبيلة « الجوابر » في منظرتها الكبيرة الأنيقة ، وتشاوروا فيما بينهم فيما يجب عمله .. وقال شيخهم :

- أنا لا أصدق حكاية الخطف .. لماذا يحطفونه ؟

- أنت عارف أن « شمروخ » حلف بالطلاق أن يزوجه البنت .

- لا .. لا .. اصرف نظر عن طلاقات شمروخ . هذا رجل يسكر ويقول

أى كلام ، وينسى ما قاله بعد ساعة مثل بقية قبيلته ! الولد هرب وذهب إليهم كل البلد تعرف أنه يريد البنت والبنت تريده .. المسألة الآن هي ما موقفنا إذا تم الزواج ؟ .. هل نذهب إلى العرس على أساس أن العريس ابنتا ، أو نقاطعه لأن الولد ذهب إليهم دون استشارتنا ؟

- نقاطع العرس .

- هذا رأيي أيضاً .. يجب أن نشعر الولد أنه بدوننا لا يساوى شيئاً ..

يجب أن يحس بالفارق بين أعراسنا نحن وبين أعراس السوالم التي تشبه أعراس الشحاذين !

- ومن قال لك : إن العرس سيتم با حضرة الشيخ ؟ .. ألم نسمع عن أبى

البنت الذى جاء وأقام في بيته القديم ؟

- سواء تم العرس أولم يتم فإن هذا لا يعنيننا فى شيء .. ليكن هذا قرارنا

الأخير .

ودخل عليهم غلام يقول لهم : إن عبد الغنى الجوابرى رفض أن يحضر معه
كما طلبوا منه أن يفعل . . قال له : إن كان الاجتماع من أجل ابنه فإن هذا
لا يعنيه في شيء ، وإذا كانوا يريدون منه أن يتبرع بشيء خاص للمنظرة فإنه
غير مستعد لذلك ، لأنه لا يدخلها عادة ، ولا يريد منهم - بعد أن يموت - أن
يجلسوا فيها ليتقبلوا فيه العزاء !

• • •

انعقد المجلس في ديوان شيخ العرب شمروخ . . لم يزد أفراد هذه المرة عن بضعة شبان وثلاثة شيوخ من أهله الأقربين . . القبيلة كلها انضمت إلى العمدة والشيخ علام وقاطعته . . لكنه مضى في إجراءات العرس وكأن شيئاً لم يحدث . . أحضر بضع كراسات وقسم أوراقها إلى مربعات صغيرة ، وطلب من الشبان أن يكتبوا رسائل إلى كل أهل البلد كي يحضروا ليلة دخلة « ابنه » معوض على بنت أخيه « بتول » . . ولما قال له أحد الشيوخ - إن أهل البلد سيضحكون منه إذا قرءوا أن معوض « ابنه » في أوراق « الدعوة » ، ضرب حاجز السرير بكفه وصرخ :

-- أنا حر أكسب ما أشاء وأشطب عن أشاء . . كل من لى « نقوط » عنده يحضره لى في عرس « ابني » . . أنا أريد أن أغيط « الجوابر » وأبرهن لهم على أن عرس قبيلتنا لا يقل في « فخامته » عن أعراسهم بما في ذلك المبالغ التي يجمعها في « النقوط » . . وأى واحد فيكم سيفتح فمه سأضربه بالرصاص !

كان الشبان يكتبون ، و « معوض » يجلس يحوار شمروخ - كانه البكر كما أطلق عليه التجمع في تهكم - يتلفت حوله ولا يصدق ما يحدث أمامه .

وقال أحد الشيوخ بعد تردد :

- والبنت ؟

- مالها ؟

- أبوها هنا .

- عارف !

- العريس تحت يدك ، هذا مفهوم . . لكن كيف مستحصل على العروس ؟ !
لم يرد شمروخ . . طلب من الشبان الذين يكتبون « الدعوات » أن يضيفوا
« ملحوظة » يقولون فيها : « كل واحد يحضر ومعه نقوطى الذى عنده ! »
ثم التفت إلى الشيخ الذى كان يحادثه وقال له موضحاً :
- هذه الملحوظة مهمة . . ربما ظن الناس أننى أريد أن أحتفظ « بنقوطى »
لزوج ابنى الحقيقى ، ودفعوا مبالغ بسيطة . أنا أريد أن يكون عرس « معوض »
من الأعراس التى تزلزل الدنيا ، وتحدث عنها البلاد الأربعة المجاورة !
تردد الشيخ قبل أن يقول بلطف :

- شمروخ يا بن عمى ، قبيلة الجوابر كلها لن تحضر العرس . . قبيلة أخوال
معوض ، لن تحضر العرس . . أغلب القبائل الصغيرة والعائلات المتفرقة
ستجامل الجوابر وتقاطع العرس . . قبيلتك نفسها تقاطعك حتى أهلك الأقربون
سيجامل أكثرهم العمدة والشيخ « علام » ولن يحضروا العرس . . ثم أين هى
العروس التى تجهز هذا كله من أجلها ؟ ! اصرف نظراً عن الموضوع كله إن كان
لى خاطر عندك يا بن عمى بدل الفضائح !

ضرب شمروخ حاجز السرير وصرخ :

- العرس سيكون من الأعراس التى لم يسمع بها أحد . ولا بد أن أعيظكم
أنتم أيضاً يا « زباله » العرب يا غنم !

والتفت الشيخ إلى شيخ آخر يجاوره ، وتبادلا نظرة تدل على أنه يشك فى
عقل شمروخ !

كان محمد على السوامي - والد بتول - يقضى حاجته في الخلاء عندما فوجئ بكف غليظة تمتد من خلفه لتفلق فيه . . تبين في الظلام ملامح شمروخ الغاضبة تنظر إليه في قسوة ، ويد تطبق على فيه ، ويد أخرى تدور حول فخذه ، وهو مكور في صدر الرجل ، يسير به في الظلام كأنه طفل في حضن أمه ، وأصوات الضفادع والجنادب تدل على أنه يتوغل به في الحقول .

فوجئ بنفسه يُسحق على الأرض في قسوة ، وتنال عليه اللكمات ، ويوثق بعمامته ، ويربط فيه بجزء فصل عنها ، ثم فتح عينيه بصعوبة شديدة ، بعد وقت لا يدريه ، ليجد نفسه في إحدى حجرات بيت شمروخ الداخلية وفوقه تقف زوجته الوسطى ، وفي يدها مصباح غازي ، وصوت شمروخ يهدر لها :
- طلاق ثلاثة . . لو عرف أحد - أضربك بالرصاص !

• • •

نجع السوام أكبر نجوع البلد ، وأكثرها عدداً ، وأعمقها فقراً . . لغة أهله قرية من الفصحى ، تتخللها كلمات كثيرة انحدرت من الهيروغليفية . . العادات غريبة كأن أهلها يقيمون في جزيرة العرب ، لولا أنها امتزجت بعادات لن نجد لها أصلاً ما لم تعرف الكثير عن حضارة وادي النيل القديمة .
ترعة عميقة تشق النجع وتتفرع في ثلثه الأخير إلى فرعين صغيرين . . كأنما

التجع صورة مصغرة من « مصر » وهذه التربة هي نهر النيل بدلتاه . . لكن التربة لا ماء فيها . . فبعد أن حُفرت في الثلث الأول من هذا القرن قام وفد من أعيان « الجواير » وسافر إلى القاهرة وعاد بعد قليل ليعلن أن الحكومة « اكتشفت » أن مكان التربة الخالي غير مناسب لرى البلد ، ولذا قررت حفر ترعة جديدة تبدأ من مزارع الجواير ، ثم تطوف في بقية مزارع النجوع .

كانت النتيجة أن هجر الكثير من السوالم آبارهم القديمة اعتماداً على التربة الجديدة في البداية ، ثم خجلوا من استخدام « السواقي » بعد أن رأوا الجواير يهجرونها من ناحية .

ماء التربة الجديدة - التي تبدأ من مزارع الجواير - لا يصل إلى السوالم إلا وهو يلفظ آخر أنفاسه ! . ماء قليل متخلف عما استغنت عنه بقية النجوع ، ويرفض أن يصعد إلى أرضهم العالية .

آبار السوالم كثيرة وكانت غزيرة الماء قبل أن يطمرها التراب . . بيوتهم القديمة كانت عالية ولها هيئة قبل أن تحل محلها هذه البيوت القميئة . . درجات السلام هي التي تدل على العز القديم . . أكثر هذه البيوت القميئة أمام كل منها بضع درجات مستطيلة غاية في الجمال . . لو أنك انحنيت أمام إحدى هذه الدرجات وأزلت عنها الطين العالق بها لوجدتها من صخور أسوان العتيقة المنحوتة بفن ، ولابتسمت في وجهك الخطوط الهيروغليفية لتقول لك : هأنذا ! ولو غامرت واقتحمت نبات الحلفاء الغزير المتجهم وأبعدت عن وجهك هيش العنكبوت ، واقتربت من بئر مطمورة - لراعك جبالها الهندسي ، وأقواسها الصخرية الرائعة التي ازدانت بالنقوش الفرعونية البديعة .

مصيبة السوالم أنهم متكبرون ولا يعترفون بأنهم نجح كسول . . يتغنون بالعز القديم دون أن يصنعوا مجداً جديداً ! حتى نخلهم كله نخل عجوز مما زرعه لهم الأجداد . كلما وقعت نخلة ، تركت مكانها شاغراً وإن قامت نخلة جديدة فالمصادفة البحتة هي التي أنبتتها !

ربما الشيء الوحيد الباقي ، والذي يحفظ لهم شيئاً - من الهيبة هو كثرة عددهم ، ومقدرتهم على القتال في عالم لا يؤمن أن هناك شيئاً اسمه « الحق » مالم تصاحبه قوة تدمير !

كانوا في ذاك اليوم يثاءبون ، وهم يتجمعون في ساعات الأصيل وسط الساحات وأمام الدواوين عندما دوت الطبول وزمرت المزامير وانطلقت الأخبار في النجع :

- شمروخ أحضر « الغوازي » من مدينة « أسنا » نساء عاريات وجماليات ، يتراقصن أمام الزمر ، ويلعبن بحواجيين للرجال ! الحقوا تفرجوا على البدع الجديدة !

وتحول نجع السوالم إلى زحام يفوق زحام مولد الشيخ عامر . . حتى قبيلة الجوابر جاءت برجالها ونسائها وأطفالها تتفرج على مدى « الكفر » الذي تردى فيه شمروخ !

. . . شبان القرى المجاورة ، سرقوا حاصلات آبائهم وجاءوا يتزاحمون . . أيهم يدفع مبلغاً أكبر للراقصات ليحظى بأكبر قسط من الاهتمام ، وشمروخ يصول ويحول ، يأمر هذا ، ويشخط في ذاك ، ومعرض يجلس على أريكة أنيقة بملابس العرس ، ويجواره المأذون الذي انتهى من كتابة العقد ، وأمه نفسها حضرت مع الجوابر وكادت تركع لشمروخ الذي وصفته بأنه « ولي من

أولياء الله الصالحين» .. على حين كان البعض يتندرون على محمد على السوالى
- الرجل الجبان - الذى وافق على العرس ، بعد أن حصل على عشرة جنيات
من شعروخ وذهب إلى نجع زوجته الجديدة !
ورفعت إحدى الراقصات ساقها إلى أعلى ، وتأوهت فى « الميكروفون »
بحيث سمعها البلاد الأربعة المجاورة . . قال الشيخ علام على العمدة الذى كان
يجلس بجواره فى مقدمة الصفوف وقال له فى هيام :
- انظر إلى الطين يا عمدة . . لو وافقت هذه المرأة - التى تشبه فرس شيخ
الجواير - أن تطيّن منى - كتبت باسمها طينى كله ، وأنزل لها عن مشيخة البلد !
وتأسف الناس كثيراً عندما حانت لحظة « زفة » العريس . . لأن هذا يعنى
نهاية هذه الليلة الأسطورية التى لن يعود الزمان بمثلها !

• • •

دخل شمروخ بيته آخر الليل ، مرتاح البال . . أخيراً ستر الله « بتول » ذات الوجه المبارك ، وستر قبيلة السوالم العظيمة دون أن تعرف هي نفسها ما فعله من أجل سمعها . . مازالت أصوات المزامير تطن في أذنيه ، وما زالت أصوات الزغاريد تشيع في روحه . . اللهم لك الحمد يا ربنا يا خالقنا يا ستار على عبادك يا كريم . . هيا سافر إلى القاهرة أو إلى أم درمان ، بعد أن تكلفت الكثير في هذه الزيارة ، وربك معك يعوضك عما فقدته . . والعرس كان لا مثيل له ولك الشكريا ربنا يا كريم . . كل البلاد المجاورة ستحدث عن عرس السوالم - سيدة القبائل - وعن شيخ العرب شمروخ زعيم قبيلة السوالم التي ليست في بر مصر كله قبيلة مثلها .

ودخل حجرته الداخلية يحمل وثاق محمد على السوالمى ، وكانت زوجته الوسطى تقف بجواره ، وفي يدها مصباح غازى .

لكن الرجل لم يتحرك بعد أن فكروا وثاقه . . أيقظه شمروخ فلم يستيقظ ، هزه ، فلم يرد ، ووضع يده على صدره فلم يسمع لقلبه نبضاً !
رفع رأسه إلى زوجته وقال لها وهو يلهث :

- الرجل مات يا بنت العم !

- مات ؟

- مات يا بنت العم !

* * *

كان يسير بين رجال الشرطة رافع الرأس . . جموع غفيرة من النجع تسير وراءه ، والنساء يبكين ، ومغربية بنت كذاب القبيلة تولول وراءه :

— لا غيب الله صوتك يا عمود قبيلتنا !

كان يقول لنفسه لم أفعل إلا الخير . . لن يتخلى الرحمن عني ؛ لأنني لم أفعل إلا الخير . . وحينما صعدوا به الجسر الذى يفصل نجعه عن المزارع التفت وراءه . . ألقى نظرة أخيرة على نجع السوالم الذى أحبه أكثر من أى شىء آخر فى الدنيا ، واستأنف سيره مرفوع الرأس .

ابتسامة غير مفهومة..





ضجيج ميدان رمسيس يصلك في الطابق العاشر ! شيء غريب أن تصر
على النزول في هذا الفندق . ربما يعطيك إحساساً بالقرب منها . . الإسكندرية
الجميلة . . مرتع الصبا والشباب . . تنظر إلى البحر فلا شيء يحد بصرك !
كأنك تعانق الطبيعة . . شعرمعاد يتطاير في الهواء ، وحين يريد لنفسه الاستقرار
يلتف حول عنقك . . غريب أنت هنا . . الناس يتدافعون حولك بالمناكب ،
وإحساسك بالوحدة يزداد . . من الذى يطرق الباب الآن ؟ . . لعله عامل
الفندق خفيف الدم ، جاء بطريقة جديدة مبتكرة لانتزاع البقشيش !

- أهلاً عباس !

حقيقته الجلدية المتفخخة في يده ، وقيصه الأزرق يضيق بحجده المدملج . .
تعانقنا برغم مضي ساعة على فراقنا . . خطا إلى الداخل وغاص في المقعد
المريح . . قال متهاكاً :

- شاورت نفسك يا عم ؟

لمجته القاهرية تشوها لكنة من ريف الدلتا . . قلت :

- أنا مرتاح هنا .

رفع ذراعه الممتلئة وواصل تهكمه :

- طبعاً . . رجل غنى . . عشرون جنباً في الشهر للنوم وحده !

- لو كان البيت بيتك لذهبت معك ، لكن قريبك هذا لا أعرفه . . ربما

كنا مختلفى المزاج .

مضى فى العدّ على أصابع يديه :

- أولاً هو سمع عنك وأحبك جداً . . ثانياً هو إنسان ابن حلال وستحبه جداً . . ثالثاً أنا شخصياً أحببتك بمجرد أن أشاروا إليك وقالوا : موظف جديد من الإسكندرية . . رابعاً أنا لا أقول لإنسان أنا أحبك إلا إذا كنت أحبه فعلاً . . خامساً ستكون لك حجرتك الخاصة ، وتستطيع الانعزال فيها إذا شئت . . هات سيجارة !

اضطرت إلى فتح النافذة ، وإزاحة ستارة الشرفة الصغيرة مفضلاً دخول الشمس الحارة على الاختناق فى سحب الدخان .

أظهر الضوء وجهه المتورد وقبضه نصف الكم وحذاءه المترب :
- هيا بنا يا أستاذ .

- قلت لك مرتاح هنا .

ضرب مسند المقعد ووقف :

- لن أنتقل من مكافى إلا ورجلى على رجلك . . اجمع ملابسك من غير معارضة . . وعلى فكرة . . أنا عازمك على الغداء !

* * *

دفع بمفتاح الشقة فى الباب وهو يثرثر :

- حداثق القبة من أجمل مناطق مصر . . وحجرتك بالذات تطل على حديقة صغيرة فى غاية الروعة .

فتح الباب على صالة واسعة عارية . . ليس بها من الأثاث غير مائدة أنيقة

لامعة الزرقة ، بجوارها مقعد خشبي وحيد ، أخفى عليه الدهر ، بدا بجانبها كالشحاذ .

في الجدار الأيمن إطار فاخر يضم صورة كبيرة لشاب في الثلاثين ، يرتدى حلة أنيقة . . شارب الصغير يعلوه أنف وسم تنحدر من أعلاه نظرة متعالية . . خصلة شعر تهدل على جبهته تشبه منقار البيغاء ، في منتصف صدره كرافة عريضة أعتقد أنها في الأصل حمراء .
- مدحت .

أشار عباس إلى الصورة بذقنه ، بعد أن أمال مؤخرة رأسه إلى الوراء ، ورفع بصره يتأملها في إعجاب كأنه لم يرها إلا الآن .
وضع الحقيبة وورقة اللحم وكيس العنب على المائدة ، وقادى إلى الحجرة المواجهة للصالة حتى وقفنا على بابها :

- ما رأيك ؟ . . واسعة ، وسقفها عال ، ولونها في بياض اللبن .
أعتقد أن في كان مفتوحاً على اتساعه لحظتها ، وأن لساني كان يتمايل في فراغه كرقبة الدجاجة حين تسترب !

حجرة واسعة عالية السقف ، تضم من « الأثاث » بضع دوائر كبيرة من خيوط العنكبوت ومجموعة من الصحف المكدورة مصفرة اللون ، وهلهيل زرقاء ، وسوداء ومغبرة ، وعلب ورنيش فارغة ، وإناء كبيراً به فحم محترق ، وماشة ، وجوزة بلورية بها ماء أصفر ، وبضعة أحجار بعضها محطم الخواف ، وكومة من الأخشاب كانت في الأصل مقاعد .

استدرت على الفور ونظرت إلى حقائبي . . من غير المعقول أن أجيء للسكنى مع إنسان لم أعرفه إلا بضعة أيام ، ثم أتوقع راحة البال !

انتبه عباس إلى استدارتي المفاجئة ، فقال بصوت ودود :
- اطمئن .. عندى سريران فى غرفتي .. أنت ضيفى إلى أن تجهز
نفسك .. تعال أفرجك عليها .
أول ما وقع عليه بصرى فى حجرته ، امرأة بملابس النوم تترقد على
سريره .. تقرب من الأربعين ، مستديرة الوجه ، مهوشة الشعر ، أنفها أكبر
قليلا مما يجب .

رمقتنى بنظرة فاترة ، ثم تمطت جيدا وتساءلت .
تراجعت إلى الوراء ، واندفع عباس إليها مهللاً .
- أهلا حورية .. كيف حالك يا حورية ؟ . سلامات يا شيخه !
انسحبت إلى الصالة وجلست على المقعد . صوت عباس المريض يصلنى
واضحاً ، ولا يصلنى منها غير همهمات :
- بسيطة يا حورية .. ولا يهيك .. والله العظيم ؟ .. قولى الحقيقة .
هاهاها ! .. عارفة يا حورية .. أنت أظرف واحدة عرفتها .. صدقنى ..
أنا لا أقول لإنسان أنا أحبك إلا إذا كنت أحبه فعلاً .. لا لا لا .. لا تشغلى
بالك .. بسيطة قلت لك .. أستاذك دقيقة واحدة .

وسمعت خطواته فى الطريقة الطويلة التى تصل حجرته بالصالة .. وطالعتنى
بجسده المدملج يتقدمه بطنه المرح .. انكأ بمرفقه على المائدة ، ومال بجذعه
وهمس قرب أذنى :

- لك غرض ؟

- لا .

- السبب ؟

- فى حالة حب .

- حب ؟ . قلت حب ؟ .. سعادتك من عشاق السينما المصرية ؟

- جالها متوسط .. ثم إنى مسافر إلى الإسكندرية بعد يومين .

- طيب هات جنبها !

ذهب إليها بالجنبيه ، وعاد ليدخل المطبخ .. خرج منه يحمل إناء كبيراً ممتلئاً إلى نصفه بالماء ، وسكيناً .. وضعها على المائدة ، وانهمك فى إزالة الأختام الحمراء من اللحم ، وهو يقول فى غيظ :

- مدحت عجيب فى تصرفاته .. قال لها : سأعود بعد نصف ساعة ولم يعد ! دائماً يوقعنى فى مشاكل فارغة .. سأترك له الشقة فى أقرب وقت ! حدثت فى وجهه مندهشاً .. الرجل الذى أغرانى بالسكنى معه يفكر فى الرحيل !

دون أن يتنبه إلى دهشتى عادت إليه لهجته الطفلية البريئة :

- حورية تستحق معاملة بهذا الشكل ؟ .. حورية ؟ .. بيضاء القلب !

رمى السكين على اللحم ، وذهب إليها ، فجاءنى صوته مجلجلاً :

- أقول يا حورية .. مارأيتك فى أنى عازمك على الغداء ؟ ..

السبب ؟ .. لا .. لا .. لن أقبل أى عذر .. إحنا إخوة يا حورية .

عند عودته مر على المطبخ ، وخرج منه بطبق أبيض آخر أفرغ فيه العنب

وهو يهمس لى :

- حورية صممت على المشى .. أنا لم ألح .. بصراحة ليس لى غرض .

ويدت المرأة جميلة عندما ارتدت ثيابها وتزينت .. حيثنا فى ود وانجهمت

نحو الباب .. قبل أن تصله صاح فيها بلهجة معاتبة :

- نسيت حاجة يا حورية ؟

عادت إليه من جديد وأعطته جبينها . . أدار عنقه وطبع عليه قبلة طويلة لها

صوت مقزز !

كانت يده اليمنى ملصقة باليسرى ، وأصابع يده اليسرى تقبض على

قطعة لحم كبيرة كالغلب .

بعد انصرافها قال لى مفاجراً :

- أنا قاطعت الأفلام المصرية من عشر سنوات !

ثم ابتسم فى سعادة وهو يغمز بعينه الكبيرة الجاحظة كعين الضفدعة !

• • •



سرير وصوان صغير وثلاثة مقاعد ومنضدة اشترتها على عجل ، وجهزت حجرى . . هذا أسهل من الذهاب إلى الإسكندرية ، وإحضار أثاث من هناك ، وإضاعة الوقت - المخصص لصحبة سعاد - فى تعقيدات النقل وركبته .

جاء مدحت ورحب بى فى شهامة ، وساعدنى فى فرش الحجرة ، وبذل عباس جهداً مشكوراً ، وفى التاسعة مساءً ، من يومى الأول كانت حجرى مستعدة لاستقبالى .
أحب الجو الأسرى حقاً ، لكننى لا أحب أن أشارك أحداً أو يشاركنى أحد فى حجرى .

فى العاشرة تماماً دق جرس الباب . . كنا نجلس فى حجرة عباس وأمامنا أكواب الشاي ، عندما دق جرس الباب . . قال مدحت مبتسماً :
- الإخوان وصلوا . . افتح يا عباس .

بدا عباس فى حجم مضاعف داخل منامته ذات الخطوط الحمراء وهو يقف . . اكسى وجهه الأحمر الممتلئ بسعادة غامرة وهو يتجه ناحية الباب .
أصوات كثيرة ملأت الصالة فجأة . . أصوات غريبة خشنة لأناس لا يعرف من يسمعونهم : هل كانوا يتناقشون أو يقتتلون ؟ . . اقتربت أصواتهم عندما دخلوا فى بداية الطريقة . . لم أسمع أحدهم يلم على عباس أو يكلمه . .

كانوا منهمكين في مناقشة حامية في الطريق ، وهم يكملونها الآن على اعتبار أن الشقة امتداد للطريق .

أربعة أشخاص وقفوا في مدخل الحجرة . . شبان في الثلاثين من عمرهم يرتدون قصانا مشجرة أنيقة وبنطلونات ملونة . . طول أحدهم مسترع للنظر ، ولأحدهم قامة قصيرة وكرش كبيرة ، صمتوا فجأة عندما وقع بصرهم على ، ثم هجموا بصافحونني في حرارة وعباس يقدمني لهم في تفخيم مبالغ فيه . . ذهب مدحت إلى حجرتة وعاد يحمل منامتين ، وفتح عباس صوان ملابسه وأخرج منامتين . خلع الأربعة ملابسهم وارتدوا المنامات ، واتجهوا إلى الشرفة الملحقة بحجرة عباس ، وتربعوا على « الشلت » التي فوق سجادة داكنة :

جاء عباس بحوزة وطبق كبير غاص بالفحم المحترق ، وطبق آخر به مجموعة من الأحجار الفخارية وبواكى المعسل . . وانهمك أحدهم - وكان نحيفا بارز العظام يعبئ الأحجار بالمعسل .

وقال لى أطولهم بصوت أجش وبلهجة سوقية :

- الشقة حصل لها الشرف بوجودك يا حسن بك .

قال ذلك وهو مشغول بفتح ورقة سلوفان .

وأشار القصير البدين إلى صدرى وقال بدون اهتمام :

- الصلاح ظاهر على وجهه .

فقاطعه عباس بقوله :

- أنا أحبيته منذ أول لحظة رأيته فيها . . بمجرد أن قال : إنه منقول من

الإسكندرية أحبيته . . وأنتم تعرفون طبعاً أنني لا أقول لأحد - إننى أحبك إلا إذا كنت أحبه فعلاً .

وسرت همهمات فهمت منها أن السعادة قد أطبقت على أنفاسهم جميعاً
لرؤيتي ، فشعرت بمحزن قاتل !
ودارت الجوزة ، وعلت القهقهات الخشنة على النكات الفجة . . وقال لي
عباس وهو ينفخ في كفيه كأنه يدفئهما :
- المعيشة هنا ميسرة ومبهجة . عندنا شغالة تجهز لنا الطعام وتغسل الثياب ،
ولكنها في إجازة الآن ، وعندنا أصحاب نجيم ومحبونا ، وعندنا أعمالنا ، وكلنا
نتمتع بصحة جيدة ، والحب متوافر ، وستكون في غاية السعادة يا حسن .
وهززت رأسي أوافقه ، وأنا أفكر في أحسن طريقة لبيع الأثاث والعودة إلى
الفندق !

* * *



ظهرت حقول الموز تلوح بأذرعها ، والقطار يهبط ، من سرعتة ، يدخل
في محطة سيدى جابر . كدت أجهش للميدان المألوف حين لمحته ، وتخيّلته
يرحب حين رآنى . . وقفت أكثر من عشر دقائق أتأمل العمارّة المواجهة ذات
القباب كالمباخر المقلوبة ، وطالبات الثانوية العامة يرتدين الزى العسكرى
وينظمن المرور .

- شقة مفروشة يابك ؟

- متشكر .

هل أذهب إلى بيتنا أولاً أو أذهب إلى بيت سعاد ؟ . . المسافة واحدة
ولا تريد عن عشر دقائق سيراً على الأقدام ، والأفضل أن أذهب إلى البيت
وأغير ملابسى أولاً .

بلا شعور منى وجدتنى أجتاز ميدان كليوباترا الحمامات وأهبط المنحدر من
شارع « بوباستس » . . هذا الهواء ذو النكهة الخاصة أنا أعرفه . . وهذه الوجوه
في الشوارع أعرفها بالنظر ولى فى كل ناصية ذكرى . .

وقفت أمام باب سعاد وطرقته فى لحفة ، ففتحت لى أمها . . ضحككت حتى
اهتر عودها الفارع ، والتفت حولنا بناتها الثلاث الصغيرات يهللن ! . . بحثت
عن سعاد بعينى فلم أرها . . حين سألت أمها عنها لم ترد . . قادتني من يدي إلى
حجرة النوم وبناتها يتقافزن وراءنا . . فوق السرير العريض ذى الورود البرونزية

في مسنده رأيت كومة كبيرة من الملابس الجديدة المستوردة . (بلوفرات وفساتين ، وسترات ملونة ، وقصان نوم ، وبمجموعة من الساعات الثمينة) . وقالت لي وعيناها ترغردان : إنها هدايا وصلتهم توأ من « حاتم » ابن خال سعاد الذى عاد أخيرا من ليبيا .

لم أكن أعرف من قبل أن صلة القرابة بين حاتم وسعاد قد اقتربت حتى وصلت إلى ابن الحلال مباشرة . . وأحسست أننى مقبل على عهد جديد لم أستخدم له ، وأن الطريق غاص بالمفاجآت .

عدنا إلى الصالة وسألتها عن سعاد ، فقالت : إنها ذهبت ، هى وأخت حاتم إلى كازينو « الشاطى » ومعها . . حاتم !

حين رأتى أنظر إليها باستغراب - جلست بجوارى على الأريكة وقالت بنبرة اعتذار :

- والدة حاتم وأخته وأخوه هناك . . واتفقنا أن نلحق بهم بعد قليل . لم أرد ! شربت عصير المانجو الذى قدم لى بسرعة وخرجت .

* * *

قالت لى أمى - وأنفاسها تنهدج - إن عيناها كانت ترف منذ خمس دقائق ، وقامت من فورها لتصعد إلى سطح البيت . ومن وقتى فى الشرفة سمعت كأكاة اللجاج ، فعرفت أنها تقوم بحركة اعتقالات فى عشة الفراخ . . لكننى لم أنتظر هبوطها . . غيرت ملابسى بسرعة ، وركبت عربة أجرة إلى كازينو الشاطى .

مائدة تطل على البحر جلس إليها كل من سعاد وحاتم متواجهين أخت حاتم وشاب آخر لا أعرفه جلسا إلى مائدة مجاورة . . عانقنى

حاتم بحرارة ، واقترح أن نجلس - نحن الخمسة - إلى مائدة أكبر في الداخل . .
بدا حاتم في صحة جيدة ، لولا كرش صغيرة بدت مصممة على فرض نفسها
عليه حلة حريرية زرقاء وعلى سعاد رداء أبيض فاخر لم أره عليها من قبل ،
خمنت أنه ضمن الهدايا ، ولاحظت قشوراً على ذراعها العارية من أثر نزول
البحر .

مضى حاتم يروي لنا مشاهداته في ليبيا . . دهشت حين رأيته يستبدل
بلهجته القديمة ، لهجة جديدة تصدر من حلقه . . إشارات جديدة اكتسبها
أيضاً ، منها وضع يده في جيب سترته وهو جالس . . فلان قال لى :
يا باشمهندس ! وفلان قال لى : « طول عمرك عبقرى يا حاتم بك ! » . .
شغلتنى حركاته الجديدة عن متابعة ما يقول . . الشاب الآخر يصفى باهتمام ،
ويوجه إليه الكثير من الأسئلة ، فانجبه إليه حاتم بكله . . انتهزت الفرصة ،
وكبت على هامش صحيفة كانت على المائدة : « قومى بنا » وقربتها من
سعاد . . أشارت بطرف خفى تطلب القلم . . تظاهرت أنها ترسم طيوراً على
الهامش ، وكبت لى : « أنا مرتبطة بالضيوف بتكليف رسمى من ماما . . اليوم
لهم ولنا غد . . أحبك » .

صحبت أمواج البحر فى أذنى فقمت .

• • •

فى التاسعة صباحاً كنت أهبط منحدر شارع بوياستس . . صعدت إلى
الطابق الثالث وضغطت الجرس . . فتحت لى سعاد وهى تدور حول نفسها
وتضحك . . تشمر عن ذراعها وعلى صدرها مريلة من الشمع الشفاف وعلى
أما مثلها . . عرفت أنهم يستعدون لإقامة وليمة لأسرة حاتم . . مائدة الطعام

البنية ، في وسط الصالة ، عليها أربع فازات غاصة بالورد .. ثلاث (لوحات) جديدة على الجدران ، تضمها إطارات فاخرة ، تمثل غابات وأنهارا تتسقى إلى مرحلة ما قبل الرسم !

جلست إلى أريكة في الصالة ، وسعاد تعدنى بالذهاب معا إلى السينما مساء اليوم .. المشابك السوداء ، كالمواسير ، تموج فوق شعرها فاحم السواد ، والسعادة واضحة في عينيها .. لاحظت أن الطرقة التي تصل الصالة بالمطبخ جاءت من ستارة مخملية بنية .

عادت أخوات سعاد الثلاث من الخارج يحملن حقائب شبكية غاصة بالخضراوات والفاكهة .. هللن لى وأحدثن ضجة صغيرة .. وشهقت الأم عندما تذكرت شيئا مهماً ، ودخلت حجرتها وعادت بجهاز تسجيل .. فتحته أمامى ، فتدفقت منه أغنية بدوية تصاحبها طبول عنيفة .. وزادت ضجة أخوات سعاد بشعورهن المشوشة وثياجهن الجديدة فوق الركبة .. واعتذرت لى سعاد في رقة ، لأنها ستنشغل عنى في المطبخ .. دقت الطبول في رأسى بعنف ، والستارة المخملية تهتز بعد أن توارت خلفها ..

• • •



أكياس صفراء فارغة تتناثر على أرضية الصالة ، وطبق الفحم المحترق يتربع فوق المقعد .

انقبض صدرى فى الحال ، أمدى تعشق النظافة إلى حد المرض . . ورقة صغيرة ملقاة على الأرض تقدم من أجلها ، أنا وإخوتى ، إلى المحاكمة !
الحجرات الثلاث مفتوحة على مصاريعها كالعادة ، ومستطيل من الشمس يعبر نافذة حجرى ليقترحم الصالة . . الجزيرة غارقة وسط كومة من قشر البطيخ وطرف غابتها متجه إلى أعلى كالمذبح المضاد للطائرات !
تحت الدش البارد قررت أن أكتب لسعاد رسالة قصيرة أطلب منها أن تحدد موقفها . . يجب أن تكون لهجة الرسالة معتدلة ، والشرفة الملحقة بحجرة عباس خير مكان لكتابتها .

زجاجة زيب صغيرة فارغة على « الكومودينو » الملاصق لسرير عباس . .
فوق السرير كراسية صغيرة على غلافها نجمات ثلاث بالحرير الأزرق . . فتحت الكراسية كيفما اتفق وعرفت خط عباس الأنيق :

« لا نعمات ولا سميرة ولا اعتدال ولا رتية ولا سائر الأخوات العزيزات
بشفين غليلي يا أمينة ، لكنك لا ترحمين . . الوصول إلى قلبك أصعب من عبور
شلالات نياجرا فوق سلك رفيع . . مصيبتى أننى تعلقت بك إلى حد الجنون . .
برغم القسوة وبرغم الصدود ، أتعلى بك ولا أدري ما المصير ؟ » .

أغلقت الكراسى ، وذهبت من فورى ، فأغلقت باب الشقة بالتراس ، وعدت إلى حجرتى ، والكراسى فى يدى . . زيادة فى الحيلة ، أغلقت باب حجرتى ، وتمددت على السرير ، عازما أن أقرأ الكراسى من أولها إلى آخرها . . حقا أن نصائح المرحوم أبى تحرم الكشف عن أسرار الناس ، لكن الاختلاف بين الأجيال من الأمور المشروعة ! .

الزميل عباس من أصحاب الصولات فى دنيا النساء . . ذكر اسم أكثر من عشرين امرأة فى كراسه ! بعضهن ذكر الأوصاف التى تعجبه فبين بالتحديد . . كلها أوصاف حسية ومتناقضة . . حتى فى نظره الحسية لا يشترط مواصفات معينة . . كلهن ممتازات والمهم هو النوع ! لاحظت أن « سميرة » شغلت وحدها ربع الكراسى الأول . . اعتدال ورتيبة وعدد آخر شغلن الربع الثانى . . لكن « أمينة » استعصت عليه حتى شغلت النصف الأخير كله . . لياليه الطويلة . . قسوة قلبها . . عيناها الكهريتان . . خوفه من الجنون ! ولم أجد فى الكراسى أى شىء عن أسرته أو عن علاقاته بزملاء العمل . . وبدأ إلى الأمر فى النهاية فى غاية التفاهة . . أعدت الكراسى إلى مكانها ونسيت الأمر تماماً .

تذكرت سعاد فانتابنى الضيق . . ثلاثة أيام قضيتها بالإسكندرية وهى مشغولة بحاتم وأسرة حاتم ! أمه وأخته وصديق أخته - أو ربما خطيبها - لا يفارقونها . . ندخل السينما وهم معنا ! نذهب إلى مكان عام وهم حولنا ! المرة الوحيدة التى اقتربت منها إلى حد ما كانت فى سينما « لاجيتيه » . . احتضنت كفها بكفى وهى تجلس بينى وبين حاتم . . أغاظنى منها متابعتها للفيلم الذى لم أفهم منه شيئا . . سأقول لها فى الرسالة : إما أنا وإما حاتم ! الأمور

يجب أن تكون واضحة لي عرف كلانا طريقه . . لا بأس من أن تكون اللهجة شديدة .

في أول سطر كتبت كلمة « سعاد » . . شطبها بعد قليل وكتبت . « أنحنى العريزة سعاد » . . فكرت قليلاً ، ثم شطبت السطر وكتبت « سعاد » . . أخيراً قررت أن أؤجل الكتابة إلى الليل . . فكرت للحظة أن أذهب إلى مقهى لكننى عدلت . . تناولت رواية قديمة ومضيت أقرأ . . بعد بضع صفحات مللتها ورميتها على المائدة . . خرجت إلى الصالة فأغاطتني الفوضى الشاملة . . تعجبت من حجة غياب الشغالة التي أحالت البيت إلى فوضى . . بحثت عن مكانة حتى عثرت على واحدة . . كنت الصالة وألقيت بقشر البطيخ في صفيحة القمامة . . بحثت عن شيء آخر أفعله فلم أجده . . ثنيت إحدى الوسائد على حافة السرير ، وانكأ عليها بمرفقى . . هببت مدعوراً على صوت الجرس . . نمت في مكاني دون أن أدري . . طرقات على الباب تصاحب صوت الجرس . . نسيت أن أفتح ترباس الباب ليدخل الزميلان عند عودتهما . . فتحت لأجد مدحت أمامي . . قيص رصاصي نصف كم على بنطلون من نوع القماش نفسه . . صافحتني في حرارة وجلس على المقعد . . سألتني إن كان عباس قد جاء ؟ فأجبتته بالنفي . . ضحك على إغلاق الباب بالترباس وغمز بعينه . . لم أجده ما أقوله فضحك وضحكت . . دهش قليلاً لما رأى الصالة نظيفة على غير العادة . . سألتني في لهفة :

- الشغالة وصلت ؟

- لا .

- من الذي نظف الصالة إذن ؟

- أنا !

رفع رأسه يحدق في وجهي بدهشة ، ثم مالبت أن ضحك وقام إلى حجرتي . . بعد قليل سمعته يناديني من شرفة عباس . . ذهبت إليه فوجدته يجلس بمنامة مشجرة . . ثرثرنا في أكثر من موضوع . . في مواجهة الشرفة جزء من حديقة لييت بدا مهجوراً ، وجزء من ساحة واسعة لمدرسة إعدادية . . قال مدحت إنه دخل اليوم في مناقشة حادة مع مدير المصلحة ، وإن المدير سبق له أن شكاه إلى عمه وأنه شبع من تأنيب عمه له ، وأنه ضاق بالأمر كله ، ولذلك يفكر في الاستقالة ، فدهشت :

- الاستقالة ؟

- لاحل غير ذلك . . المرتب لا يكفي وأهلي عودوني كثرة الإنفاق ، والآن

لا يريدون أن يروا وجهي !

اكتشفت أننا جميعاً نحصل من أسرنا على مبالغ فوق مرتباتنا ؛ مما يدل على أن وجودنا على هذه الأرض - قد « أفاد » الاقتصاد القومي كثيراً ! - وهل فكرت في عمل آخر ؟

- عمل حر .

- ورأس المال ؟

- موجود .

سادت بيننا فترة صمت قال بعدها :

- أملك عشرة أفدنة . . ربما بعث نصفها مرة واحدة .

- لك خبرة في عمل معين ؟

- سأشارك (كمال شاهين)

- من كمال شاهين ؟

دهش قليلاً ، لكنه قال في هدوء .

- ألا تعرف (كمال شاهين) ؟ . . الذى سهر معنا ؟

- هم أربعة . . أيهم كمال شاهين ؟

- الطويل . . ذو الفك العريض والصوت الحشن .

- ماعمله ؟

- قطع غيار السيارات . . اتفقنا أن نتوسع .

وجاء عباس يحمل حقيبته المتفخة ، ومعها كيس فاكهة ، وثلاث دجاجات قال : إنه اشتراها بمساعدة صديقه موظف الجمعية التعاونية برغم الزحام الشديد من أجل الأرز والصابون ! ودخل المطبخ وعمل في همة وهو يتشكى غياب الشغالة الذى أوقعه في مسئولية طهو الطعام ، وسب صبي الكواء الذى يأتى مرة ويغيب مرات تاركاً أكثر القصص متسخة . . ثم أكلنا ونمنا ، وأنا أقول لنفسى : إن النوم هو أحسن وسيلة للهروب من هذا العالم . . وقبل أن أغمض عيني ، سمعت « عباس » يهمهم باسم أمينة .

° ° °

دق الجرس فخف عباس ليفتح . . السجادة الداكنة تزينت بدائرة « الثلث » وجو الحجرة ضاق بسحاب الدخان ، والشاب البارز العظام يستعل .

جاءنا صوت عباس يهلل عند الباب :

- هلت ليالى القمر . . لو كنت أعرف موعد وصولك لفرشت لك سجادة

على طول الطريق !

وسمعنا ضحكة ناعمة ، ومالبثت أن دخلت علينا حسناء فى الخامسة

والعشرين ، عليها رداء أزرق فاتح ، ينهر شلال من الشعر البنى على جسدها الملقوف !

قاموا لها باحترام . . صافحوها فى وقار . . أشاروا إلى دائرة « الشلت » وطلبوا منها التفضل بالجلوس . . حدثت فى وجهى بخوف فى البداية ثم تمّ التعارف . . ذهبت بعدها إلى حجرة مدحت وعادت ترتدى إحدى مناماته المشجرة . . بدت المنامة واسعة عليها ، لكنها أعطت جهاها طابعاً خاصاً . . أعطوها انتباههم وترحزحوا جميعاً يفسحون لها مكاناً ، لكنها جلست بجوار مدحت الذى كان أقلهم احتفاءً بها . . لم تشرب معهم . . فقط كانت تعلق أحياناً على أحاديثهم بكلمات سريعة فيها ذكاء .

عندما بدأت نكات كمال شاهين الفجة ضقت بالجلسة وقت . . دخلت حجرتى فجاء عباس ورأى :

— من غير المعقول أن نكون نحن (سعداء) وأنت وحدك تحمل الدنيا على رأسك ! رجلى على رجلك .

حاولت أن أقنعه بأننى غير راغب فى الجلسة ، فلم يقنع . . لم أقاوم طويلاً كانت لى رغبة فى تأمل الفتاة . . وسألته هامساً :

— من هذه ؟

— فاهد .

وقرب فمه من أذنى - برغم أننا وحدنا - وقال :

— متزوجة . . لكنها تحب مدحت .

ارتعت . . كيف هى متزوجة وموجودة هنا فى مثل هذا الوقت ؟ . . قال

عباس :

- زوجها الموظف يتغيب كثيرا بحكم عمله . . وهى تسكن فى الشارع نفسه . . هى ومدحت بينهما قصة حب منذ أن كانت مخطوبة . هيا بنا إلى مجلس الإخوان .

عدنا إلى الجلسة من جديد . . قررت بينى وبين نفسى أن أبيع الأثاث فى الصباح وأعود إلى الفندق . . لاحظت أن ناهد تميز بغازتين بديعتين ترغمان البصر على الاتجاه إليهما مها قاوم . . حينما دارت الجوزة ، وأوغل الليل ، ورقى النسيم ، وتراقصت غمازات ناهد ، وتحول لون الصوان أمامى من البنى إلى البنفسجى - بدت لى الدنيا بهيجة ، فقررت أن أكتب رسالة إلى سعاد ، أصف فيها سعادتى ، وأخبرها بأنها لآتهمنى فى شىء ! لأننى عثرت على مفاتيح السعادة ، فى المكان الذى سأقيم فيه طول عمرى .

لكن ، فجأة ، خيل لى أن كارثة ما قد حلت . . أناس يقفون فى الحجرة ، يتكلمون بصوت عال . . كلهم تخرج عنهم أصوات عالية ولا أحد يسمع . . وفجأة أيضاً هداكل شىء وضعت يدى حول رأسى لأتبين حقيقة ما حدث ، وبعد جهد عرفت أن « الإخوان » قد رحلوا ، وقام عباس ، وتعدد فوق سريره ، وقال لى ضاحكاً :

- مساء الخير يا أبو على

ثم أشار إلى حجرتى وطلب منى أن أذهب لأنام . . لم أفهم ما قاله فى البداية . . عرفت أنه يطلب منى أن أذهب عندما أطلق ضحكة هازئة عالية . ولما دخلت الطرقة الموصلة إلى حجرتى ، شعرت بالخوف . . غارقة فى هدوء مفرع . . ظلال تنعكس عليها من مصباح الصالة السهارى . . جو أسطورى تنقصه الأشباح . . بدت لى المسافة إلى حجرتى طويلة وبلا نهاية . . فتح باب

الحمام فجأة ففزعت . . خرجت منه ناهد ملفوفة في بشكير . . شعرها مبتل
يلمع ، وغازاتها تعلان عن ابتسامتها ، ورائحتها الأنثوية تملأ خياشيمي . .
قررت أن أعترض طريقها ، لكنني أفسحت لها الطريق . . سمعت باب مدحت
يفلق وراءها !

• * •

الشقة غارقة في الضوء ، والساعة بلغت العاشرة صباحاً . . أصوات الشارع
تصلني في وهن ، والذهاب إلى العمل من المستحيلات . . أعتقد أن محاولات
جرت لايقاظي . . عباس أجلسني على السرير ، لكنني قاومته . . الدش البارد
يستطيع أن يعيد إليك وعيك . . فوق المائدة زجاجة لبن وثلاث بيضات . .
تجهيزها لن يستغرق وقتاً على أي حال . . طعم البيض المقل ، نصف الناضج
أروع من رائحة ناهد . . من الذي يدق الباب الآن ؟

أمامي فتاة تميل إلى الطول . . تقاطيع وجهها نوحى براحة البال . عينان
بنيتان ضاحكتان ، يتغير لونها مع تغير الضوء . . أسبلت عينيها فهالتي طول
الأهداب !

- أي خدمة ؟

- أنا الشغالة .

لعلها تمزح . . من غير المعقول أن تنقلب الموازين إلى هذا الحد . إن كانت
هذه شغالة فثمة خلل في نظام الكون . . لكن أمارات الجد على وجهها . . مازلت
محدراً منذ ليلة أمس ، والأفضل أن تفسح لها الطريق . . انظر إلى فستانها
البسيط لتعرف أنها شغالة فعلاً . . لكن - ياإله الكون - الفستان كأنه صنع من
أجلها بأيدي جاءت من وراء الطبيعة . . في الثامنة عشرة تقريباً . . يياضها

مشرب بحمرة ، وربما حمرتها مشربة بسمرة . . أنت لست غدراً . . ثمة خلل
في نظام الكون . . وجهها بتودد إلى الناظر إليه ، دون أن تريد هى ذلك .
طفل فى السابعة وطفل أصغر منه قليلاً يدخلان وراءها . . شعر البنت
متهدل على جانبي وجهها . . كالقطعة الصغيرة عندما تنثني إحدى أذنيها وتميل
برأسها وتنظر إلى أسفل . . الطفل يشبهها . . جلبابه أبيض عليه كتابة حمراء
بدائية تفيد أنه ختن حديثاً . . مد مباته نحو زجاجة اللبن ورفع رأسه إليها :
- أفطر .

شدته من يده بعنف ، حتى ارتطم وجهه بفخذها
- اخرس .

ضايقتنى قسوتها . . أفرغت ماتبقى فى الزجاجة فى كوبين وناولتهما
الطفلين . . لم يمد أحدهما يده إلى الأكواب . . رفعاً رأسيهما الصغيرين ،
ووجهها إليها نظرات خائفة :

- خذ يا شاطر . . خذى يا حلوة .

عادت النظرات الققطية من رحلتها ، وتسلطت على الأكواب . . لكن
الأيدي ظلت على خوفها .

- قولى لهما يأخذا .

ابتسامة لم أر مثلها فى مرارتها ، صاحبت أمرها لهما أن يشربا . . ولم تكن ثمة
مقاعد فى الصالة لأجلس الطفلين . . عملت لكل منها شطيرة صغيرة من
البيض وأعطيتها . . وتقا بأكلان بسرعة أدهشنى . . كأنها ديكان صغيران
عاريان من الريش ، حبسا ثلاثة أيام بلا طعام ، وألقى إليهما الحب فجأة !
- متشكرين .

سمعت صوت الأمواج وشممت في نبراتها رائحة البحر ، فهذه لاشك لمجة
الأنفوشى :

- من إسكندرية ؟

- الوابلى .

نبرات صوتها تعلن عن عدم رغبتها في الحديث . . قادت الطفلين وخطت
إلى الداخل . . لمحت حجرقى عامرة فتوقفت :

- حضرتك سكنت هنا ؟

- نعم .

لم تقل شيئاً . . خطت إلى المطبخ ، بالابتسامة التى لم أر مثلها في مرارتها . .
حين سألتها عن اسمها قالت في اقتضاب : أمينة .

وقلت لنفسى : ربما أنت تحلم أوروبما ما زلت واقعا تحت تأثير ليلة أمس !

• • •



الشمس لم تطلع بعد ، وشمسيتى هى الوحيدة على الشاطئ . . كازينو كليوباترا الهامات إلى اليسار ، وإلى اليمين تبدأ الكبائن المشابهة بأبوابها الصفراء الباهتة . . خفت أن أنفجر غيظاً فى البيت ، فلدجأت إلى الشاطئ . . سعاد عُينت فى وظيفة مرافق خاص للسيد حاتم ! والقرب من البحر يعطى إحساساً بسهولة الانتحار . . يقال : إن المعيشة فى دول الشمال أفضل منها فى البلاد الأخرى . . الزواج من امرأة نصف عمر تفتح بعده أبواب السعادة ! . السيد شريف بنفسه قال : هذا ليلة أمس ! عم سعاد العظيم ، والمثل الأعلى فى أسرته هو الذى أكد هذا ليلة أمس ! جلسنا فى الصالة أمام التلفزيون نتنظر سعاد ، وروى لنا قصة صديقه الذى ورث عن أبيه عشرين ألف جنيه . . كان سعيداً ومبهجاً ، لأن صديقه أتى هذا الأمر الخارق ! رنة فخر تغلف صوته كأنه هو الذى ورث ! السيد شريف يعمل مديراً لأحد فروع شركاتنا ذات التعامل الواسع مع الجماهير .

قبل التأميم كان يجلس فى مقعده رجل إيطالى . . قفز هو بسرعة لذكائه النادر كما تقول والدته سعاد ، واحتل المقعد . . لم تكن الأمور . قد اتضحت بعد فى الشركة لأصحابها الجدد . . أدارها السيد شريف وأصدقاؤه الذين « يسهرون » معه . . أصحاب الشركة الجدد هم السيد شريف و« إخوانه » . بعد التأميم بستين وضع التطور فى الشركة . . التحسينات العصرية التى

أدخلت عليها عادت على العاملين فيها بالخير ، فبنى السيد شريف عمارته الأولى
في « ميامي » . . العارة (الثانية) كانت في نهاية السنة الثالثة . . في السنة
الرابعة أوقف السيد شريف عن عمله وقدم إلى المحاكمة . . ومهما توارى الحق
فلا بد له أن يظهر يابني ! ومادمت لا تؤذى أحداً فلا بد أن يفتح الله لك طريقاً
ولو في المحيط نفسه ! ظهرت براءة السيد شريف وعاد إلى عمله معزراً مكرماً ؛
ذلك لأن سمعة أحد رجال البلد المهمين يجب ألا تشوه مادام كل شيء مسجلاً
باسم زوجته !

والدة سعاد من أشد المعجبين بالسيد شريف . . تلتفت إلى زوجها الموظف
الصغير المسكين ، وتحيطه علماً بأن كل الناس ركبت السيارات الفاخرة ، وهي
الوحيدة التي مال بحتها !

الشمسيات غطت الرمال دون أن أدري . . بالقرب منى شمسية حمراء
جديدة . . تحتها رجل وامرأة وطفلتها . . البنت الصغيرة شقراء ملونة العينين
كأنها سويدية أونرويجية لولا سمرة الشرق . . عليها لباس بحر أصفر يكشف عن
ضلوعها . . تبني لنفسها أهراماً صغيرة من الرمال . . صفارة طويلة من عامل
الإنقاذ ، لبضعة شبان توغلوا في البحر . . موجة ظلمة اكتسحت أهرام
الصغيرة . . انخرطت في البكاء ، فهب أبوها يساعدها . . حركة عن يميني
ليست غريبة . . صوت أقدام تطحن الرمال . . ساقان جميلتان تقتحمان
شمسيتي . . جسد صاحبتها عجوب خلف الشمسية ، والقدمان تصطدمان
ومقع البحر الصغير . . أنا أعرف هذه الساق . . هبت واقفاً فيما يشبه الفرع .

— سعاد ؟

جذعها منحني لتلاقى حواف الشمسيات المتراخمة . . غطاء الرأس أبيض ،

والثوب القديم واسع عليها . . جلسنا وأنا ممسك بيديها الاثنتين . . هي تتكلم وأنا أصدق فيها دون نطق !

- دخت عليك . . الشمسيات كثيرة ومتلاصقة ومتشابهة ودخت عليك ماما لم تقل لى إنك جئت من مصر أمس . . قالت لى : خفت أنخبرك لتأخر الوقت والصباح رياح . . عملت معها مشكلة طبعاً . . كنت خائفة أن تكون نزلت البحر ولاأجذك فى هذا الزحام . . حمداً لله على السلامة يا حسن . . سألت عنك بالبيت ، ووالدتك فتحت لى الباب ووقفت تمحق فى وجهى عشر دقائق قبل أن تدعونى للدخول وكأنها لا تصدق أنى أنا . . نادبة أختى جاءت معى وتبحث عنك الآن فى الجانب الآخر من الكازينو ، وربما تاهت الآن . . مالك تمحلق فى وجهى دون نطق كأن سهم الله نزل عليك ؟ النظر إلى وجهها المسمم اللطيف ، وتأمل حواف شعرها الأسود أسفل غطاء الرأس ، والإحساس بدفه أصابعها الطويلة السرحة - أبلغ من أى حديث !

خلعت حذاءها وأفرغت منه الرمال ، واستندت على عمود الشمسية . . جاء بائع الكوكاكولا فاشترينا زجاجتين . . أدارت الزجاجاة بين يديها وتأملتها : - عمى شريف كان عندنا الليلة . . كان يشكر فيك طول الوقت . طارت نشوتى فى الحال مادام السيد شريف يمدحنى فالمقصود هو العكس . - أخبرته أن « حاتم » تقدم لخطبتى فتحمس له . . قال لى : حاتم يناسبك جداً !

الشمسيات اقتربت وابتعدت وأهرام الصغيرة ارتفعت وانخفضت ، ودار البحر فأصبح فى الجنوب ، وتحول الشاطئ إلى الشمال . . أعتقد أنى يجب أن

أعرف سعاد من جديد .. متقلبة المزاج حقاً ، لكن هذا وحده لا يكفي معرفتها ! لمة خفيفة من زاوية عينها فضحتها .. أرسلتها لترى أثر كلامها فوضع عبثاً .. . أمالت رأسها إلى الجانب الأيسر وقالت في دلال مصطنع :
- شاب ممتاز .. اتفقنا على كل شيء .

برغم إحساسى بمزاحك وبرغم حبى للدلالك المصطنع فإننى خائف .. الله وحده يعلم أننى خائف .

- بابا شريف قال لى : إنك شاب ممتاز حقاً ، لكن مسئوليات الزواج صعبة عليك ! أعطتنى نصف ظهرها ، وهى تلصق ذقنها على كتفها وتنتظر لى مبتسمة وتهم بقول شيء ؛ وهى بهذا الوضع رأت جارتنا الصغيرة نقيم أهرامها الجديدة على الرمال .. . نسيت ما كانت تنوى قوله وصاحت بفرح طفولى :
- انظرا بنت مثل السكر .

قربت وجهها من وجهى وقالت فرحة :

- ليتنا نخلف بنتاً فى حلاوتها .

وفى تلقائية محبة - ذهبت إلى الطفلة وجاءت بها . طاوعتها الصغيرة مسرورة ، وأبوها وأُمها يتسمان .. . جلست وضممتها إليها وهى تسند ذقنها على صدرها :

- اسمك ياسكر ؟

- عير .

التفتت إلى فى بهجة كأنها اكتشفت شيئاً غير عادى :

- خلاص .. نسميها عير .

لحت أرجل بنطلون بائع الكوكاكولا خلال الشمسيات ، فأسرعت بدفن

الزجاجتين في الرمال ، ولملت الشقاوة في عينها .. وقف الرجل ينظر إلينا في شك ، ويدور بنظره على الشمسيات المجاورة .. انشغلت هي في مداعبة الصغيرة وتجاهلته تماماً .. تشجع الرجل وتساءل :

- عندكم زجاجتان ؟

رفعت إليه رأسها اللطيف بخوذته البيضاء .

- نعم ؟

- أظن أنا أحضرت زجاجتين ؟

ضخمت صوتها تبالغ في تقليد لهجة حوارى المدينة .

- (تشتغلوا علينا ياعم) .. (من الصبح قاعدين في أمان الله وفي الآخر

تقولوا لنا ما عرفش إيه)

ضحك الرجل في اطمئنان .. طريقتهما في مط الكلمات لم تكن متقنة كما

يجب ..

قال لها باللهجة نفسها :

- طيب اطلعي منها والحقيتنا بالفوارغ ربنا يخلى لك الكابتن ويرزقكم كل

يوم « جوزين جنيهات »

هبت فجأة وخلعت ثوبها .. وأظهر لباس البحر الداكن الحمرة جسدها

دقيق التكوين .. دست الثوب في سقف الشمسية وأوعزت للعائلة المجاورة

بحراسته .. قدمت ساقها اليمنى ، وثنت ركبتيها ، ومالت بجذعها إلى الأمام قليلاً

تستعد للعدو :

- أنت صدقت أننا سنخلف بنتاً نسميها عبير ؟

- طبعاً ..

- طبعاً ؟ .. معقول أضيع مستقبلي مع ولد هايف مثلك !
وتسابقنا .. أبنا يصل البراميل قبل الآخر ؟

* * *

خمسمائة جنيه وعشرة كانت في جيبي . . سيارة الأجرة تنهب في الطريق الزراعي ، والحقول الفسيحة حولي توحى بالأمان . . ثمن حصتي في بيتنا الجديد كافية تماماً لزيجة نصف متواضعة . . الشقة في بيتنا القديم وعندما تفكر في السكنى بالقاهرة قد يأتي الله بالفرج . . دخلت ودخلها كافيان للضروريات . . دروسها الخصوصية لكالياتها . . اتفقنا أن أجهد في البحث عن عمل إضافي لكالياتي . . الأيام القادمة ستكون صعبة ورائعة في وقت واحد ! بيت تعيش سعاد بين جذرائه لاتتوقف أمامه صواب !

في استراحة طظا أصرت على أن أدفع ثمن مشروبات كل الجماعة التي تركب معي سيارة الأجرة ! انتهزت الفرصة ورويت لهم قصة حبى . . بين الحين والحين أدخل يدى في الحقيبة الصغيرة وأتحس النقود . . هذه أول مرة في حياتي أحمل فيها مثل هذا المبلغ أنا في حاجة إلى أناس أروى لهم كل شيء عن يومي الأخير بالإسكندرية .

دخلت القاهرة بخطوات راقصة . . في داخلي يتردد الحن : « يا حبيبتي بامصر » . ستغلب على كل مشاكلنا ونتنصر . . سنملاً بلادنا بالمصانع ، وستترع كل الصحارى العربية ، بما فيها الصحراء الكبرى . . حينما دخلت الشقة وجدت « أمينة » والطفلين . . رقص قلبي لمراى الطفلين . . تذكرت « غير » جارة الشاطئ وناديت الصغيرين .. جلست على المقعد لأنه يواجه

المطبخ . وملت يجذعى إلى الأمام أداعبيها :

- أخواتك يا أمينة ؟

- أولاد أختى .

ردها مقتضب يوحى بعدم الرغبة فى الكلام . . ابتسامة مغتصبة مشحونة بالمرارة . . انتهت من الغسيل وتجهيز الغداء . . من مكافى لا أرى غير جزء من ظهرها . . تمنيت لو جاء عباس أو مدحت لأروى لها يومى الأخير الرائع . . تنهت إلى الطفل يمسك ييدى ويروى لى حكاية طويلة لم أفهم منها شيئاً . . ضحككت من منظر أسنانه المخلعة . . الصف الأعلى ليس به غير ستين متجاورتين . . تحتهما تماماً فى الصف الأسفل ، مكان خال لستين مخلوعتين . . كأنه تعمد هذا ليدخلها مكانها .

خرجت أمينة من المطبخ ودخلت الطرقة . . دهشت . . هذا ليس وجه شغالة . . هذه الرشاقة لانتليق إلا بمثثلة من الصف الأول تقوم بدور خادمة . . عباس معذور إذن . . هذا جمال صاعق . . لو أن هذه الفتاة ارتدت ثوباً فائحاً من ثياب السهرة ودخلت إحدى حفلات عليّة القوم ، لانحنت لها جباه تتحكم فى عالمنا ! عباس معذور إذن . . لكن أليس من الواجب أن أفعل شيئاً من أجلها ؟ . . أليس من واجبى أن أحاول حمايتها من عبث عباس جنسى المشاعر والأحاسيس ؟ . . أعتقد أنها ليست فى حاجة إلى هذا . . الدليل أن نصف مذكرات عباس تشكوها ! هى قادرة على حماية نفسها . . لكن . .

خرجت من المطبخ وأسندت يدها على بابه . عيناها أضاعتنا منى نصف الانتباه . . قالت فى حياء :

- أقول لحضرتك على حاجة !

- خير .
- نفقات البيت تكون مملكتك .
- والسبب ؟
- مدحت لا يعطينى حتى كاملاً فى نهاية الشهر .
- رفعت رأسى إلى صورة مدحت فى الصلاة :
- حاضر . . ابتداء من اليوم اعتبرينى المسئول .
- وظهرت ابتسامتها المشحونة بالمرارة . .

• • •

انعقدت الجلسة عند مدخل الشرفة . . الطبق الكبير غاص بالرماد ، توهج عليه الجمرات والحجارة البنية فى صف طويل عامرة بالمعسل . . قررت ألا أشاركهم ولو انطبقت السماء على الأرض . أريد أن أحتفظ بعقلي كاملاً أسترجع يومى الأخير فى الإسكندرية .

فكرت فى أن أفاتح مدحت فيما قالت أمانة ، لكننى أجلت ذلك إلى الغد . . عرفت أن اثنين من « الإخوان » جامعيان يعملان فى غير تخصصاتها . . الثالث ثانوية صناعية ويعمل - بعد الظهر - مع كمال شاهين . . الأخير من حملة السادسة الابتدائية ، ويفخر بأنه نسى القراءة والكتابة باستثناء الأرقام . ملك الجلسة غير المتزوج . . نصف نفقاتها على حسابه . . فى حضرته ممنوع أى حديث لا يستطيع فهمه أو المشاركة فيه . . عليهم جميعاً أن يضحكوا للنكات الفجة مادام هو يضحك لها . . هو الوحيد المتزوج فى الجلسة كلها . . الشاب البارز العظام - وكان خريج تجارة - قال بعد الدورة الثالثة :

- عشرة آلاف مليون جنيه نفقات المعركة ، من يوم ٥ يونيو لغاية نهاية حرب أكتوبر !

قال القصير البدين يقرب الأمر إلى ذهن كمال شاهين :

- يعنى عشرة آلاف متر ذهب مكعب يا أبو كمال !

كانت عينا كمال شاهين جاحظتين وهو يطبق بشفتيه على غابة الجوزة ويشد نفساً طويلاً بقوة . . أغمض عينيّه والدخان يتسرب من أنفه ببطء شديد . لما انتهى من ذلك هز رأسه وقال بلا اهتمام :

- عال .

- ويقال إن عددنا سيصل خلال العشرين سنة القادمة إلى سبعين مليوناً .

قام عباس فجأةً وشد إليه ملاءة سرير ، ووضعها على كتفيه ، وأسدل طرفها على ظهره كالعباءة . . جلس متربّعاً وهو يقول فى مرج :

- لذلك قررت الإضراب عن الزواج للتخفيف عن البلد !

موجة عالية من التصفيق الحاد والضحكات العالية . . تهليل مبالغ فيه كأنهم يؤيدونه بحماسة على موقفه . . لكن كمال شاهين التفت إلى عباس وقال له فى ضيق :

- هات لنا الفاكهة .

قبل أن يتحامل عباس على نفسه ويقف دق جرس الباب . . ذهب ليفتح وهو يلف الملاءة حول جنيبه . . بعد قليل عاد يرحب بامرأة تقترب من الثلاثين . . مظهرها يوحي بأنها ربة بيت . . جمال هادئ ، وعينان وديعتان وإن كانتا تدعيان الجراءة . . استقبلوها بتهليل عظيم . . حدثت فى وجهى قليلاً وتم التعارف . . الزميلة سميرة إبراهيم . . موظفة بمصلحة البريد . . أمدت يدها

على كنف مدحت ومالت يجذعها تستقبل الجوزة الممدودة . . اعتدلت وفتحت
فاها عن آخره ، ونفثت موجة كثيفة من الدخان . . صاحوا يطلبون منها أن
تدركهم بفنها جذبت ملاءة السرير من عباس فدار حول نفسه . . تحزمت بها
ورقصت وهم يضبطون لها الإيقاع على أكفهم ويضجون .
جلست تحت موجة عالية من التصفيق . . التصقت بعباس وأسندت رأسها
على كتفه . . طوقها بذراعه وطالب بخمسة أحجار متتابعة لتحية سميرة ! قلت
لنفسى فى الصباح تباع الأثاث وتعود إلى الفندق . . دق جرس الباب وقام
عباس . . بعد ثوان وقف ناهد أمام باب الحجرة . . حين رأيت الغازتين
الحلوتين عدلت عن فكرة بيع الأثاث !

• • •



- رفع عباس سماعة التليفون من مكتبه المواجه لمكتبى وقال لى فى لهفة :
- إسكندرية تطلبك .
 - تعثرت فى أحد المقاعد وأنا أقوم مسرعاً :
 - آلو.. أنا شريف يا حسن .
 - أهلا شريف بك .
 - أريدك لأمر هام .
 - خير يا شريف بك ؟
 - كل خير.. حاول أن تحضر اليوم .. أو غداً على الأكثر .
 - ممكن آخذ فكرة ؟
 - المسألة بسيطة ولا تشغل بالك .. فقط الأمر يتوقف على حضورك .
 - أعطنى ولو فكرة بسيطة .
 - عندما نلتقى .. قل لى متى تحضر ؟
 - الآن .

حصلت على إجازة ليومين ، وسارعت إلى الشقة وسحبت من المبلغ عشرة جنيهات ، وللحظة فكرت فى أن أضع المبلغ كله فى جيبى لكننى خشيت أن يضيع منى فى الطريق .. أخيراً وضعته (بظرفه) فى مكانه من الصوان ، بعد أن أغلقته ووضعت بضعة قصاص فى حقيبة صغيرة ونزلت .

من محطة سيدى جابر اتصلت بالأستاذ شريف تليفونياً . . هللى لى وقال :
إنه يتظرفنى بالبيت .

ما إن جلست حتى لاحظت حفاوته البالغ فيها . . جاءت لنا ابنته بعصير
مانجو ، ثم انسحبت هى وأمها وأخليا لنا البيت بحجة زيارة عائلة صديقة .
تنحج طويلاً قبل أن يقول لى :

- أنت إنسان عاقل جداً يا حسن .

- بعض من فضلك .

- الحقيقة ، يعجبني اترانك ، وتفهمك للأمور بطريقة واقعية .

لم أرد . كنت مشغولاً بما بعد هذا التمهيد . . واستطرد :

- من مدة طويلة وأنا أحاول مفاعمتك فى هذا الموضوع . . لكن الأمر لم
يكن مهياً كما يجب .

كنت أأحدق فى وجهه أحاول أن أستشف ما يريد قوله ، ولكن دون
جدوى . . فقط شعور بالانقباض يتأبى .

- أنت طبعاً تحب سعاد . . أليس كذلك ؟

- بلى .

- والمفروض فى الحب أن يتمنى لحبيبه الخير . . هل هذا صحيح ؟

- صحيح .

- بصراحة وبدون جرح لشعورك ، سعاد وحام أصبها يميلان

لبعض ! ولذلك كلقت أنا إخطارك . . ووافقت على أساس معرفتى بأنك
ستفهم الأمر كعهدا بك . ولم أفهم ما يقوله فى البداية . . مضت لحظات
لا أعرف مقدارها وأنا أأحدق فيه فيما يشبه البلاء . . أخيراً سألته :

- من كلفك ؟

- سعاد نفسها .

- هل يمكن أن أقابلها ؟

انشغل في التحديق في أصابعه المشعة الممتلئة دون أن ينطق . . . وحينما رفع بصره لاحظت أن لفته المترهل بدأ يشكل ذقنا آخر له . . . وقال لى وهو يتسم :

- المقابلة غير ممكنة . . . لأنها في غير مصلحتك ومصلحتها !

- أصر على أن نلتقى .

دخل إحدى الحجرات وعاد يحمل ظرفا أزرق ، مده لى ففتحته وقرأت

خط سعاد :

« عزيزى الأستاذ حسن . . يوسفى أن أقول لك : إننى

بدأت أحس بفتور من جانبك فى الفترة الأخيرة . . والحقيقة أن

الفتور مشترك وليس من جانب واحد ! وكنت أود أن أخبرك

لكن الظروف لم تكن تسمح . . والحقيقة : أنت شاب ممتاز فعلاً

وأى واحدة تتمناك . . وأرجو أن أشهد حفلة زفافك على من

اختارها قلبك فى القريب العاجل ؟

أختك : سعاد »

برغم أن الخط خط سعاد فإننى لم أصدق هذا إلا فى اليوم الثانى ، لذلك

قضيت فى اليوم الثانى ليلة معربة عند امرأة فى الإبراهيمية عرفنى بها أحد

الأصدقاء القدامى . . وحينما عرفت أسمى فى يومى الأخير ما دار بينى وبين السيد

شريف ثارت ثورة جامحة . . وتحدثت عن أصولهم وأنسابهم بأشياء غريبة سمعتها

لأول مرة ! ودهشت على موافقتها الأولى على مصاهرتهم على حين أنهم كما

وصفهم ! وقالت فى ثورة غضبها إنها ستزوجنى سيدتها وسيدة أسرتها !
وترجمت قولها عملياً ، واتصلت بأسرة كانت تجاورنا يوماً ، ودعتها لزيارتنا . .
ولم تمض ساعة حتى كانت الأسرة الصديقة تدخل بيتنا تتقدمها كبرى بناتها
(لطيفة) بقوامها الأهيف لولا طول أنفها !

لم أستطع الجلوس معهم . . استأذنت فى الخروج برغم احتجاج أمى
وذهبت لزيارة صديق القديم « هانى » بمنطقة محرم بك . . رويت له ماحدث
وتلقيت مواساته ، ثم ضقت بكل شىء وقررت السفر .
حينما وصلت القاهرة اكتشفت أننى نسيت سلسلة مفاتيحى بالإسكندرية ،
فاضطرت لكسر باب الصوان .

قضيت أسبوعاً كاملاً أنام النهار ، وأتسكع فى شوارع القاهرة طوال
الليل . . أحياناً أدخل إحدى المحانات وأدفع ثمن الشراب وأخرج دون أن
أتناوله ! وأحياناً كنت أسرف فى الشراب حتى أفقد توازنى . . ذهب مدحت
إلى رئيسى فى العمل - وكان قريبه - واعتذر له عن تغيبى فقبل عذره . . فى
اليوم الأخير من الأسبوع ظلمت أتسكع حتى الساعة صباحاً . . حينما فتحت
باب الشقة رأيت منظرأ غريباً . . عباس وأمينة يقفان فى الصلاة . . هو يدور
حول نفسه فى حرج ، وهى مقبضة الجبين ، والطفلان يبكيان . . فى سرعة
عجيبة تناول حقيقته وخرج . . لم أهتم . . كنت فى حاجة إلى النوم ، وغير
مستعد لأى شىء . . فكرت للحظة أن أرتدى منامتى ، لكننى قررت أن أنام كما
أنا . . فوجئت بأمينة تطرق الباب من الخارج . . كان الباب مفتوحاً فصحت
فى جفاء .

- نعم ؟

وقفت في مدخل الحجرة وقالت في انفعال :

- أقول لحضرتك على حاجة !

- خير .

- نفقات البيت تكون مع حضرتك .

- قلت هذا من قبل . .

دهشت لصياحي ونبراقى المغيظة . . قالت وهي تنسحب :

- قصدي أفهمك على حاجة ثانية .

صحت من مكاني لأسمعها صوقي .

- قولي عن الحاجة الثانية .

لم ترد . . ظلت لبرهة قصيرة أنتظر قدومها فلم تأت . . دخل على الطفلان ، فلوحت لهما يدي في ضيق ، فتقهقرا مذعورين . جلست لبرهة قصيرة أفكر هل أرقد أو أعاود الخروج ؟ ثم ما حكاية هذه البنت ؟ . . المصانع الآن تستوعب كل البنات ، فلماذا لا تلتحق بأحد المصانع ؟ . . هناك حلقة مفقودة مطلوب مني معرفتها ! لو كان مدحت وعباس يجزلان لها العطاء لكان وجودها هنا معقولاً . . لكنها - باعترافها - تعاني منها فلماذا هي هنا ؟ . . أليس من المعقول أن تكون ممن يستغلن جاهن وتظاهرن بعكس ذلك لعدم استلطافها لعباس مثلاً ؟ . . النساء هكذا . . يتمنعن وهن الراغبات ، وإلا فن يصدق أن يصدر مثل هذا التصرف عن سعاد ؟ ليس للمرأة إلا السوط والفراش ! خرجت من الحجرة ودخلت المطبخ . . وضعت يدي على كتفها وقلت لها متصنعاً الحنان :

- قولى عن الحاجة .

تماوج كنفها كما يتماوج ظهر القطة ، فانزلت يدي ، استدارت ولاذت بالجدار وهى تحدق فى بعينين مذعورتين .

- كنت أظن أنك ستحمينى .

- أحملك ؟

- ظننتك مختلفاً عنها .

نحجلت . . انسحبت فى هدوء ، وأغلقت على باب حجرتى ، ومالبثت أن استغرقت فى النوم بكامل ملابسى .

* * *

- حجرتك لطيفة جداً . . قررت أنام فيها الليلة .

قالت لى ذلك سميرة إبراهيم ، صديقة عباس ، والجميع يدورون حول الجوزة ، والحجرة غارقة فى الضباب برغم باب الشرفة المفتوح .

أحسست أن (مدحت وعباس) هما اللذان أشارا على سميرة أن تقول ذلك . . فطوال المسهرة وهى لا تفارقنى ، على حين جلست ناهد بجوار مدحت بعد أن ارتدت إحدى مناماته .

لم أقل لمدحت أو لعباس ما حدث لى فى سفرى الأخير للإسكندرية . . لكنها أحسا من تصرفاتى خلال الأسبوع الماضى بأن كارثة ما حلت بى واحترما احتفاظى بسرى لفسى .

كان كمال شاهين يروى نكتة من نكاته الفجة عندما دق جرس الباب وقام عباس ليفتح . . لا أذكر تماماً ما حدث بعد قيام عباس . . كل ما أذكره صوت خطوات مسرعة فى الطرقة ، وعباس يلح على أصحابها ماذا يريدون ؟ ثم

خمسة رجال يقتحمون علينا الحجرة .

ناهد تهب واقفة وتشهق شهقة عظيمة ، تنهاوى بعدها على السجادة مغشى عليها . . أحد الرجال - وكان فوق الخمسين - عليه سترة بنية ، يصفها بأقذع الألفاظ ثم يهجم على مدحت ويطبق يديه على عنقه . . الحجرة يدور فيها قتال غريب . . ينقلب الكوميدينو . . تبعثر جمرات النار على السجاد . . أكوأب شأى تحطم . . ماء الجوزة يجري على السجاد . . يهدأ كل شيء فجأة . . يذهب الرجل ذو السترة البنية ومعه اثنان . . يبقى معنا اثنان ، أحدهما يجثو على ركبتيه وينهمك في إفاقة ناهد . . سميرة تبكى في هستيرية ، وعباس يقف في ركن الحجرة يتحسس فكه الذى نالته لكمة قوية .

• • •



لم نجد طعاماً في الشقة ، عندما دخلنا ، عباس وأنا . . الصلاة غارقة في بحر من الفوضى ، وفوق سرير عباس كومة من قصائنا المتسخة . . دار عباس حول نفسه وقال :

- شيء متناقض . . عدم تنظيف الصلاة يدل على أن أمينة لم تأت اليوم ، وكومة القمصان تدل على أنها جاءت ، واستعدت للغسيل .
- ربما جاءت وأرسل أحدهم في استدعائها .

خرج عباس وعاد لنا بطعام سريع . . ورحنا نثرثر على الطعام حول طلاق ناهد من زوجها وسفر مدحت إلى القرية لإحضار نقود . وعرفت من عباس أن شقيق ناهد - وهو الذي انهك في إفاقتها - رجاهم أن يظل الأمر سراً إلى أن يجد سكناً جديداً خارج منطقة « حدائق القبة » . . وقال عباس في احتجاج :
- تصور . . مدحت يريد الزواج من ناهد ؟

- وماله ؟

- ماله ؟ . . رجل في سثل مركزه ، يتزوج واحدة مثلها ؟

- أتعني أنها امرأة سيئة ؟

- طبعاً . . واحدة ترضى لنفسها أن تقيم مع رجل أعزب ! نهايته .
كنت في حالة نفسية مستعد معها لأن أقاتل طواحين الهواء . . قلت في غيظ :

- ولماذا رضى هو لنفسه وهو صاحب المركز كما تقول - أن تقيم معه ؟

- هو رجل ..

- أتعنى أنه يحق للرجل مالا يحق للمرأة ؟

لوح بيده وقام ليفسل يديه ثم عاد ليقول :

- عارف .. لولا وجودى هنا ، ما مكنت معنا أمينة يوماً واحداً .

- تعاملها معاملة طيبة .

- ليس هذا القصد .. مدحت لا يدفع لها راتباً .. أنا أتكفل بنصيبه

ونصيبى فى أكثر الشهور .. اللهم إلا فى الحالات التى أكون أنفقت فيها أكثر مما يجب .

ولما كنت أعرف أن الحالات التى ينفق فيها أكثر مما يجب هى القاعدة - فقد عرفت الآن لماذا هى دائمة العيوس .. وندمت لأننى لم أعتذر لها على خطئى فى حقها منذ بضعة أيام .. وأقنعت نفسى بأن حالى النفسية ليست على مايرام ، وقررت أن أسترضيها فى أقرب فرصة .

وجلسنا فى حجرته نشرب الشاي ، ثم قال بحماس :

- ليكون فى علمك .. أمينة هذه من عائلة طيبة جداً .. إخوتها كلهم موظفون وأبوها رجل محترم .

- ياسلام ؟

- ألا تصدق ؟ ، والله العظيم أمينة من أسرة كريمة .. وهى تعمل فقط كى لا ينفق عليها أبوها أو أجد من إخوتها .. (إنسانة) عزيزة النفس بشكل لا تتصوره .. كانت موظفة ، واتهمت فى قضية سياسية ، ففصلت من عملها .. مملك سجاثر ؟

أشعل سيجارة وقام بفتح صوان ملابسه .

- الله ؟ .. أين زجاجة الكلونيا .. هل أخذتها ؟

- لا .

- زجاجة جديدة اشتريتها ولم أفتحها بعد .. الله ؟ .. أين

الكرافات ؟ .. وأين قماش القمصان الجديدة ؟

ووقف يحرق في وجهي ببلاهة .. وقت من فوري وفتحت صوان

ملابسي ، فلم أجد ظرف النقود .. درت حول نفسي :

- عباس .

جاء على أثر صيحتي :

- ظرفي أنا أيضاً غير موجود .

- أي ظرف .

- ظرف به حوالى خمسمائة جنيه .

لطم خديه وصرخ بأعلى صوته :

- يومنا قطران ! وأنا قررت أهج من البلد .. لا أحد غير بنت الكلب ..

أنا متشكك فيها .. طول عمرى متشكك فيها .

- من ؟

- سميرة إبراهيم .

كنت على استعداد لأن أتهم أي إنسان .. طلبت منه أن يدلني على مسكنها

فوراً .. لكنني سألته :

- هل كانت هنا الليلة الماضية ؟

- لا .

- هل معها مفتاح للشقة ؟

- لا .

- أنا أذكر أنني رأيت النقود ليلة أمس .

وضع يديه فوق رأسه وقال :

- من في رأيك ؟

ترددت قبل أن أقول :

- أمينة ؟

قال في حيرة :

- لا يمكن .. أمينة تؤمن على الذهب !

- واحد من أصحابكم ؟ .. أقصد ربما مع أحدهم مفتاح للشقة ؟

- مستحيل .. أصحابنا أولاد ناس ومحترمون .

- أمينة ؟

- قلت لك لا يمكن .

لم أنحمل .. صرخت فيه :

- سأبلغ عنكم البوليس جميعاً يا أولاد الكلب ! .. كلكم لصوص ! ..

أنتم جميعاً حقراء وسأضعضكم جميعاً في السجن !

لم يرد عباس .. احتفظ بأعصابه هادئة .. ذهب إلى حجرته ثم جاء

ليجلس بجوارى .. كانت الحجرة تدور بى وصورة كبيرة لسعاد تدور فى

الزوايا ، وفى الخلفية يظهر السيد شريف وعلى شفثيه بسمة ساخرة .. وقال لى

عباس فى هدوء :

- أنت أخطأت في حقى ، وأنا مساعدك . . أما نقودك فسادفعلها لك بالقرش الواحد .

ثرت فيه وبسمة السيد شريف الساخرة تستغنى . .
- قم من هنا يا لص يا بن الكلب ! . . ما الذى تملكه يا هلفوت حتى تدفع لى ؟ ! قم حالاً الآن وإلا ضربتك !

• • •

رويت ما حدث لضابط البوليس فى اختصار . . وكان مدحت قد عاد من البلد ، وذهب معنا إلى قسم البوليس وانهم « أمينة » . . عارضه عباس فى البداية ، لكنه وافقه بعد ذلك . . ذكر مدحت اسم « شغالة » أخرى اسمها « هانم » ، قال إنها هى التى جاءت له بأمانة . . جاء الضابط معنا وعان الشقة . . أشار إلى صوان الملابس قائلاً :
- طبعاً هى التى كسرت .

- لا . . نسيت مفاتيحي فى الإسكندرية ، وكسرت .
عدنا معه إلى قسم البوليس ، فكلف أحد المخبزين إحضارَ أمينة وهانم . ولولت « هانم » عندما رأتنا نستدعيها من البيت الذى تعمل فيه ، وقالت : إنها تخاف الذهاب إلى القسم ، لكنها مستعدة أن تدلنا على بيت أمينة ، فوافقها المخبر الذى قال لنا ما معناه : إنه يملك خطة جهنمية لإحضار النقود . كان الوقت بعد الظهر بقليل ، والجو حار . . أمام إحدى حارات الوايل ، ميدان صغير مؤلف من التقاء حارتين على خرابتين متقابلتين . . كشك لبيع السجائر ليس به غير بضع صناديق سجائر ، وعدة بواكى من البسكويت الرخيص ، وعلبة كبيرة بها كمية من الأسبرين ، وأكياس بيضاء كثيرة من

الفحم . . فى داخل الكشك جلست صبية فى العاشرة مهوشة الشعر . . حينما
اقترنا منها وضع لى الشبه بينها وبين أمينة .

مدت هانم سبابها فى نافذة الكشك ، وحولتها إلى الأرض عن يسار
الكشك وقالت بلهجة باكية :

- أختها . . وأما .

نظرت إلى حيث أشارت سبابها فرأيت امرأة مفرطة البدانة ترقد على جنبها
الأسر فوق جوال فى ظل الكشك . . عليها رداء أسود مترب ، وتلف رأسها
بنجار بنى باهت ويدها تحت رأسها .

خرجت الصبية من الكشك ، وركعت على ركبتيها على الجوال وهزت
الجسد الراقد :

- ماما . . ماما .

مد المخبر يده إلى علة البسكوت ، داخل الكشك ، فتناول « باكو »
وفتحه ومضى يقطع به الوقت !

فتحت المرأة عينيها فرأتنا . . اعتدلت جالسة وقد وضعت إحدى ساقها
تحت جسدها . . مضت تحديق فىنا وشفتها السفلى ترتعش . . أشارت الصبية
إلينا وقالت لها :

- سألونى عن أمينة .

قالت ذلك بصوت عال جداً والمرأة مازالت تحديق فىنا . . عيناها واسعتان
وجانب وجهها مترب وخصلة شعر بيضاء تطل فوق أذنها من ثقب كبير فى
الخمار .

- من يريد أمينة ؟

وشى صوتها بأنها ثقيلة السمع . . خالطته نبرة نحس معها أن صاحبها نفذ
يده من الدنيا عن عجز وقهر وعدم فهم . . صفحة خدتها غير المتربة بها آثار
شقوق ربما من تأثير الشمس . . شفها العليا يشقها خط عميق من متصفها
كأنها شفة جمل !

مدت يدها في اتجاه الحداق قائلة في ضجر :

- أمينة عند الأستاذ مدحت . .

وللحظة خيل إلى أنها تهتم بمعاودة الرقاد . . لكن المخبر قال لها بصوت
عال :

- هذا هو الأستاذ مدحت . . أين أمينة ؟

هبت المرأة واقفة في نشاط دهشت له . تقدمت من مدحت وقربت وجهها
من وجهه وضيق عينيها :

- أنت مدحت ؟

قبل أن يرد مدحت أونتبه إلى ما حدث - فوجئنا بها تقبض على ياقة
قيصه وتلفها حول يدها حتى لتكاد أن تخنقه :

- أنت مدحت ؟ . . أنت ؟ .

هزته بعنف ونحن نحاول تخليصه منها وهي تصرخ :

- أنت مدحت . . أنت الذى تأكل أموال اليتامى ؟ . . أنت ؟

صرخ فيها المخبر وكلنا يحاول تخليصه منها :

- اختشى يا ولية . . أنت عارفة ما عملته بتلك ؟ .

تركت المرأة قيص مدحت ، وحدثت في المخبر الذى أشار ناحيتي وأضاف :

- سرقت فلوس البك .. أَلف جنيه .. أنا بوليس .

عينا المرأة صورة مجسمة للهلح والبلاهة .. حدثت في وجهي وكأنها لا تنتظر إلى شيء .. ثم في وجه المخبر .. ثم وجه عباس .. ثم في وجه ابنتها .. وتراجعت ، وجلست على الجوال مترعة .. رأسها مرفوع يحدق فينا وعيناها تطرفان .. ولا أدري لماذا خيل إلى أنها تبسم .. ابتسامة من يختلط عليه الأمر بين الحلم والواقع !

• • •

لم أُنبه إلى الصبية وهي تدخل البيت القمىء المواجه لظهر الكشك .. تنهت وهي تعود ومعها امرأة في الثلاثين ، شديدة البياض ، تعلو وجهها صفرة ، عليها رداء رخيص ، ونهار أسود .. وضعت يدها على رأسها أمامنا وولولت بصوت مبحوح :

- يا خراب بيتنا .. يا مصيبتنا .. البيت قدامكم ، فتشوه .. أمينة عند خالتنا من يومين .. ماذا فعلنا في دنيانا ياربي .. فتشوا البيت ! ومضينا في إثرها يتقدمنا المخبر والصبية على حين لم تتحرك الأم من مكانها . لأول وهلة خيل إلى أنها قادتنا إلى مكان آخر كي تفضلنا .. فلم يكن في الحجرتين الصغيرتين المتداخلتين غير سرير حديدي مائل ، أعمدته تقشرت ، وبضعة أجولة من الخيش بعضها مخيط في بعض مفروشة على الأرض في الحجرة الداخلية ، ومواد طويلة وطفل رضيع نائم ، وفوق نافذة ، وأربما كوة مستديرة من الخشب « الأبلكاش » .

أحست بحركة ورائي ، فالتفت لأرى الطفلة الصغيرة التي تأتي بصحبة أمينة .. ترفع رأسها إلينا في استغراب .. لم أتبين ملامحها لرداء الضوء إلا بعد

وقت طويل .. خلفها جاء الطفل بجلبابه الأبيض وخطوطه البدائية تنبئ
بالختان .. التصق الطفلان بالمرأة التي مضت تولول :

- ربنا يكفنا شر الحرام .. نحن نبعد عن البلاء والبلاء لا يريد أن يتركنا !
البيت قدامكم فتشوه .. يا خراب بيتنا يا مصيبتنا .

استدردنا خارجين دون أن يتفوه أحدنا بكلمة .. في الخارج رأينا الأم ،
وظهرها لنا ، تضع رأسها على راحتها . قال المخبر يسأل المرأة المولولة :
- أنت أختها .

- أختها .

- اسمك ؟

ردت بالصوت الباكي :

- نادية .. أنا متزوجة وأسكن في شبرا .. لكنني في زيارتهم .

- قلت إن أمينة عند خالتها من يومين .

واستدار ليوجه لي نظرة ذات مغزى .

- من يومين .. هه ! طيب ! ممكن تفضلوا معنا إلى القسم وقبلها ممكن

نعرف بيت خالتها !

ردت بصوتها الباكي :

- حاضر .. أروح معكم عند خالتها .

وقالت لأختها عادت للجلوس في الكشك .

- اقفلي الدكان ، واذهي لأبيك . قولي له : تعال حالا أمينة أوقعتنا في

مصيبة .

ولم تكن الأم قد رفعت رأسها من على راحتها .. ملامح وجهها تدل على

أنها لاتحس بوجودنا . . أدخلتنا في العالم الغريب الذى نقضت يدها عنه .

• • •

عدنا إلى الكشك من جديد بعد أن لطمت الحالة خديها وأنكرت كل معرفة لها بمكان أمينة . . وجاء رجل أسمر نحيف في حدود الخامسة والخمسين ، يرتدى جلباباً مخططاً رخيصاً ، ووقف قبالتنا أمام الكشك وفي ملامحه ضراعة . . لم ننتبه لوجوده في البداية . . حسبناه ضمن الناس الذين تجمعوا للفرجة . . تعلقت نادية بكفه وأجهشت بالبكاء :

- أمينة جاءت لنا بمصيبة يألئى . . سرقت من بيت البك ألف جنيه !
لم يعلق الرجل . . ظلت نظراته الضارعة عالقة بوجوهنا دون أن ينبس . .
سأله المخبر :

- أنت أبوها .

قال وكأنه يقدم كلمة ويؤخر أخرى :

- نعم . . أبوها . . يا . . بك .

- وقعت يا حلو !

قال المخبر ذلك وهو يرسل لى نظرة من جانب عينه كأنه يقول لى : انتبه جيداً ، فأمامك عبقرية بوليسية لم يكشفها أحد بعد ! . . ثم وضع يده فوق كفف الرجل وقال له فى هدوء بارد كنصل السكين :

- ليكن فى علمك . إذا لم تحضر البنت من تحت الأرض فى ظرف ساعة
فستذهبون جميعاً فى داهية .

ومد سبابته إلى صدرى وحوها إلى صدر عباس وأضاف :

- البكوات من كبار المسؤولين في البلد . . ممكن جداً يقلبوا علينا الدنيا كلها !

تنبهت إلى أن ملحت غير موجود . . تلفت يمناً ويسرة فلم أجده . . سألت (عباس) فقال في نبرة اعتذار :

- مشى . . معه موعد مهم ومشى . . أعصابه تعبت لما أمسكت المرأة في خناقه .

وسمعت المخبر يقول للرجل وهو يهزه من كتفه :

- أنا أنذرتك وأنت حر ! فأنا بطبيعتي أحب الحلول السلمية . . لكن إذا كان الذوق لم ينفع فأنت عارف بما يمكن أن يحصل !

العرق يغطي وجه الرجل وينحدر في الأخاديد المسودة إلى أسفل . . يتجمع في نقاط صغيرة أسفل ذقنه وتتساقط على صدره . . لم يكن يتكلم . . يفتح فمه ويغلقه وتصدر عنه أصوات واهية غير مفهومة . . فقط تعطى الإحساس بأنه مستعد لأن يمشو على ركبتيه إذا طلب منه ذلك .

طوال الوقت كانت نادية تضع يدها على رأسها وتردد بصوت مبحوح :

- يا خراب بيتنا يا مصيبتنا ، عملنا إيه يارنى !

بنتها الصغيرة بشعرها المهوش تتعلق بثوبها باكية ، وطفلها يجلبابه ذى الخطوط البدائية الحمراء يشد ثوبها كأنه يطلب منها الذهاب ويتطلع إلينا في دهشة . . على حين ظلت الأم - ورأسها على راحتها - تعتبرنا جزءاً من العالم الخارجى غير المفهوم .

• • •

قال لى مدحت بانفعال :

- أنت أخطأت فى موقفك . . المفروض أن تترك المخبر يأخذهم جميعاً إلى قسم البوليس . . هناك فقط يمكن أن يدلوك على مكان البنت .
- لكن . .

- لا لكن ولا يحزنون ! أنت شخصية ضعيفة ولا مؤاخذه . . هؤلاء الناس لا ينفع معهم إلا الضغط . . من كان يصدق مثلاً أن أمينة بنت لبوة ؟ . . كانت توهمنا أنها حرة وها قد ثبت أنها بنت لبوة ! كان المفروض أن أنتبه من البداية . . فالبنت التى أحضرتها إلى معروف عنها أنها لبوة . . ما معنى هذا ؟ . .
الطيور على أشكالها تقع طبعاً !

كان مدحت يتكلم بانفعال شديد ، على حين كان (عباس) يريح رأسه على كفيه واضعاً مرفقيه على المائدة وقد ظهر عليه الهم . . لم يغير هذا الوضع إلا بعد أن استأذن مدحت فى الخروج . . رفع رأسه وقال لى بعينين محمرتين من تأثير المخدر :

- هل أبوح لك بسر خطير ؟

- خيراً .

- فكرت فى يوم من الأيام أن أتزوج أمينة . . الخوف من كلام الناس هو الذى منعنى .

مرت فترة صمت قصيرة كان عباس خلالها يحرق في وجهى مفتوح الفم . .
مصدر دهشته أنه لم يرنى أدهش لهذا السر الذى وصفه بالخطر . . لم يكن
يعرف أننى قرأت كراسة مذكراته ، ولم أكن فى حالة نفسية تمكننى من التظاهر
بالدهشة :

رمش بعينه رمشات سريعة قائلاً :

- واضح أنك لا تصدقنى .

لم تكن لى رغبة فى خوض أى حديث يخص الآخرين ، ولم أكن فى حالة
نسمح لى بمعاملة أحد ، فلذت بالصمت .
دسّ كفه فى كفى وقال بصوت متهدج :

- وحق العيش والملح . . عزمت فى يوم من الأيام أن أتزوجها .

لم أرد . . تذكرت أن نقودى قد ضاعت ، وأنه ليس يجيبى غير ثلاثة
جنيهاً والشهر ما زال فى منتصفه ، ولا أقارب لى أو أصدقاء بالقاهرة ،
والسفر إلى الإسكندرية الآن معناه تأجيل البحث عن النقود ، مما يعنى ضياعها
نهائياً ، ولا أعتقد أن « عباس » أومدحت يستطيعان إسعافى بشىء ، فلم
أكلف نفسى عناء الرد .

حرق عباس فى وجهى قليلاً ، ثم قام وذهب إلى حجرته . . طالعتنى فى
الصالة صورة مدحت بشاربها الصغير ، ورباط عنقها الفاقع ، فتملكنى رغبة
فى تحطيمها ، لكننى وجدت أن الأمر لا يستحق .

عاد عباس يحمل فى يده ورقة شفافة ، فتحها ، وتناول سيجارتين من
علبى ، ومضى يفرغ ما فيها من دخان . . ثم تهدّ طويلاً وقال لى :
- خليباً على الله .

فتح الباب ودخل مدحت ووراءه صبي الكواء يحمل لفافات بها (كبدة)
وفاكهة وثلاث زجاجات بيرة . . أمر الغلام أن يضعها على المائدة ويذهب .
ودخل عباس المطبخ لإحضار طبق ، فانتبه مدحت فرصة تواريه ودس في
جيب منامتي ظرفاً صغيراً . . أمسكت بيده متظاهراً بالرفض لكنه أصر قائلاً :
- أنا أخوك . . !

أكلنا في شرفة عباس وشربنا البيرة ، وحين دخلت حجرتي متظاهراً بإحضار
شيء ، وفتحت الظرف وجدت به عشرين جنيهاً ، فعدت إليهم وشربنا
السجائر التي افتن عباس في لفها ، ويدت لي الدنيا ببيجة . . وقلت لنفسي :
إن الإنسان بصفة عامة يتقدم برغم غيابه ، وإن المشاكل العالمية ليست
مستعصية على الحل ، وإنه من غير المعقول أن تكون أمينة الوديعه هي التي
سرت النقود ، وإن هناك حلقة مفقودة مطلوباً مني أن أعثر عليها ، ومستحل
قضية الشرق الأوسط إن آجلاً أو عاجلاً ، وسنبني بلدنا وننشر الحضرة في كل
مكان ، وستعود سعاد وتعذر لي عما بدر منها !

مع حلول المساء رق النسيم ، وطاب السهر ، وجاءنا المخبر ، فاحتفينا به ،
وقال لنا : إنه قام بتحريات واسعة النطاق عرف منها أن أمينة تعشق شاباً من
أبناء حي « بولاقي » وأنها تقيم هناك ، وأن إحدى جاراتها رأتها ترتدى فستاناً
حديثاً يصل إلى منتصف الفخذين ، لكنها عادت للتخفي لما عرفت أن البوليس
يبحث عنها .

وعدل المخبر من وضع باقة قيصه الأسود حول عنقه النحيل ، ومسح على
صلعته وقال بلهجة الواثق :

- كل ما يتقصى الآن هو تحديد البيت الذي تقيم فيه . . لكنني دبرت

خطة تقودنا إليها ولو كانت في بلاد واق الواق !
وتنهذ عباس بصوت مسموع .

* * *

كنت بالقرب من باب الشقة عندما سمعت صوت الجرس . . فتحت الباب
لأجد أمامي رجلين . . أحدهما قصير ممتلئ الجسم ، يضع على رأسه طربوشاً ،
ويرتدى جلباباً من الصوف الرمادي ذى القصب الذى يدور حول العنق . .
لباس أعيان الفلاحين . . والآخر يرتدى جلباباً رخيصاً وعلى رأسه طاقيّة من
الصوف البنى .

- أى خدمة ؟

لم يرد القصير المطرّش . . دفع بعصاه العاجية المقبض أمامه ، واندفع إلى
الداخل وهو يقول للآخر :

- كما قلت لك . . المسألة مسألة وقت ليس إلا !

وجلس فى الصالة بعد أن وضع عصاه فوق المائدة على حين صافحنى الآخر
وقال لى فى نبرة اعتذار :

- مدحت هنا يا أستاذ ؟

- نعم .

- هذا عمه ، وأنا قريبه .

- أهلاً وسهلاً .

وكنّت أريد أن أقول : « تفضلوا » لكننى عدلت بعد أن كان « العم » قد
« تفضل » فعلاً .

وجاء مدحت وعباس من الداخل . . هجم عباس على الرجل المطرّش

وعانقه بحرارة وسلم على الآخر ، وأحضر بضعة مقاعد من حجراته ومضى يرحب
بهما . . على حين سحب مدحت مقعداً ، وجلس بعيداً عنها بعد أن سلم
بأطراف أصابعه وكسا وجهه بتقطعية تهدد بالانفجار .

نقر المطررش على المائدة قليلاً وقال بهدوء :

- كل شيء له نظام يا أستاذ مدحت ، وكل وقت له أذان .

انفجر مدحت دفعة واحدة . . مدذراعه على طولها في وجه الرجل وصرخ

فيه :

- أقسم بالله العظيم . . ما أنزل عن حق إطلاقاً . . أنتم جميعاً اتفقتم ضدى
لكننى سأؤدبكم واحداً واحداً .

أدار العم عنقه ناحيتي وقال بهدوء :

- صل على النبي يا أستاذ .

- اللهم صل عليه .

- افرض أننى عمك ، وظروفي المالية لا تسمح بكل طلباتك . . هل

تفصحني ؟

صرخ فيه مدحت :

- اسمع . . أنا لا أحب كلام المصاطب . . فلوسى تدفع لى على دائر المليم ،

والإفاننى سأبيع لفيرك .

- ولماذا تبيع لفيرى يا مدحت ؟ . . هل يرضيك أن أمشى في البلد ،

والناس تشير ناحيتي وتقول : « أرضهم اشتراها الغرياء ، وهو عامل نفسه

زعيم » ؟ . . يرضيك يا مدحت ؟

ضرب مدحت ركبته صارخاً :

- يرضيني .

صمت العم . . وجاء عباس لهم بالشأى فقال لى العم :

- والله العظيم يا أستاذ . . والله العظيم . . الضرائب التى تدفعها للحكومة على الأرض فى هذه السنوات العكرة ، لا حصر لها ! كأننا نزرع أرضنا بالإيجار . . مدحت لا يحس بما نحن فيه ، مع أنه وحيد أبويه ، وورث عشرة أفدنة مثلاً ورثت أنا تماماً . . لكن أنا عندى ثلاثة أولاد وبنات فى الجامعة . . هل أستطيع أن أشتري عشرة أفدنة دفعة واحدة ؟

قال مدحت بصوت أقرب إلى البكاء :

- أنا واقع فى مأزق حرج يا عمى . . لن يخلصنى منه غير بيع أرضى كلها .

- أنت تردد « مأزق حرج . . مأزق حرج » . . ما هذا المأزق الحرج ؟

- سر أحفظ به لنفسى !

- سر على عمك ؟

- على نفسى أيضاً !

- طيب . . مستعد أعطيك مبلغاً ، تصرف به أمورك إلى أن يحلها ربنا .

- لا . . والمبلغ كله أو أبيع لغيركم .

- يا مدحت عيب . . أنت موظف ولك مرتب تصرفه كل شهر ، ولك

إيراد منتظم يصلك . . انظر إلى عباس المسكين الذى لا يأتیه غير خمسين جنيها

فى السنة كلها فوق مرتبه لدرجة أنه أضرب حتى عن الزواج .

- قلها كلمة ! المبلغ كله أو البيع لغيركم !

- يرضيك ؟

- يرضينى . . اجمع أخواتك وأولاد عمك وأولاد أخواتك وتفاهموا

- مع بعضكم . معكم مهلة عشرة أيام !
وضحك الرجل ذو الطاقة البنية وقال :
- تفاهموا في هدوء . . والصبر طيب .
صرخ فيه مدحت :
- صبرى نقد ، ولا تتدخل أنت من فضلك !
شرب العم الشاى على عجل وقام . . قال وهو يخطو إلى الخارج :
- الكعبة لها رب يحميها .

* * *

قضينا ثلاثة أيام ونحن نطبق على الطبيعة الخطة التي رسمها المخبر . . .
وفي البداية تخيلت أنني سأرى خطة مثل تلك الخطط العجيبة التي نشاهدها
في الأفلام البوليسية . . . حتى إنني توقعت أن يحضر لي المخبر في صباح اليوم الأول
وهو يرتدى قبعة تميل إلى الأمام فتغطي نصف وجهه ، ويضع على عينيه نظارة
سوداء ، ويكسو يديه بقفازين ، ويلبس حذاء جلديا طويلا يصل إلى ركبتيه ،
وفي يده جهاز يسجل الأصوات ويلتقط الصور .

وفوجئت بأن (الخطة) لم تكن تريد على أن أجلس في مقهى صغير قريب
من الكشك في النهار ، وأن أجلس في المساء على عدة أجولة من الخيش مفروشة
بمحاور الكشك ! . . .

كان المبنى المجاور للكشك - وهو مشروع مسجد صغير - يلتقي بظله على
مستطيل ، تفرش به بعض الأجولة الفارغة ليلاً ، ويجلس عليها عدد غير قليل
من سيدات الحارة وأطفالها ، وأحياناً ينضم إليهم بعض الرجال كبار السن ،
يثرثرون في شتى الأمور .

كان من رأى المخبر أن « جهنمية » الخطة إنما هي في أنها تتيح لنا أن أجلس
بينهم متخفين في الظلام الدامس لنترك لهم فرصة الثرثرة حول موضوع أمينة
الذى يشغل الحارة ، ومن هنا نستطيع أن نستدل على مكانها .

في البداية حدد الأم ونادية والصبية التي تجلس في الكشك - بأنهم جميعاً

سيذهبون في دهابة لو أطلعوا أحداً على شخصياتنا . . وقال لى : إن « الحطة » ناجحة جداً.. فحتى لو استطاع أحد المثرثين أن يتعرف علينا أو يشك فينا ، بعد أن تعتاد عيناه الظلام - فإنه سيكون قد ثرثر بشيء ما قبل ذلك . عباس ضاق بالأمر كله وتركنا في اليوم الثاني ، أما مدحت فقد امتنع عن المجيء خوفاً من الأم .

وتوطدت الصداقة بينى وبين المخبر ، فروى لى قصة حياته ثلاث مرات خلال يومين . . وكان فى كل مرة يضيف إليها أشياء ويحذف منها أشياء ، ويصمم فى النهاية على أنها تصلح للسينا لكثرة ما فيها من « مواظ » ! ولم نخرج بأى معلومات جديدة عن المكان الذى تقيم فيه أمينة . . كل ما خرجنا به هو أن الأب يعمل عند أحد « المقاولين » ونخرج إلى عمله فى الصباح ولا يعود إلا عند منتصف الليل . . وأن أمينة كانت تعمل فى أحد المصانع ، واتهمت فى واقعة سرقة ، ولم تثبت عليها التهمة ، لكنها طردت من المصنع ، فاضطرت للعمل عند مدحت . . وأن نادية طلقت من زوجها حديثاً ، وجاءت لتقيم بطفليها مع أهلها بصفة دائمة ، وليس للزيارة كما زعمت لنا . . وحين سألها المخبر عن سبب الطلاق ، تهمت وقالت بصوتها المبحوح : - « رضينا بالغلب ، والغلب لم راضى ! »

وعرفنا منها أن ضيق المعيشة هو السبب ، وأنه يكبرها بثلاثين عاماً . فى اليوم الثالث استقبلتنا نادية أمام الكشك وفى يدها حقيبة جلدية كبيرة بها ثلاثة ثياب للأم ، وثلاثة لها وثلاثة ثياب لكل من أختها الصغرى وطفليها ، وأبيها !

كانت الثياب جميلة ، وتم عن ذوق رفيع ، وخارجة لتوها من عند

الحائك ، ومازالت خيوطه الرفيعة عالقة بها .

قالت لنا نادية إن أمينة جاءت في الصباح الباكر بسيارة أجرة ، وأنزلت الحقيبة في رأس الحارة ، وطلبت من إحدى الجارات أن توصلها لنا ، ثم اختفت السيارة بها .

روت لنا ذلك في أنفة وعزة ، واكتشفت أن لون عينيها يتغير بتغير الضوء وأنها لا تقل جمالاً عن أمينة لولا هزالها .

وضع المخبر سبابته اليسرى فوق حاجبه الأيسر ، وأرسل لي نظرة جانبية مركرة ، كأنه يقول لي : انظر إلى سبابتي وهي تشير إلى منبع العبقرية التي أوصلتنا إلى هذه النتائج .

حركته هذه لم تعجب نادية . . كشرت عن أنيابها - لأول مرة منذ رأيتهما - ولملت عيناها وقالت له في حدة :

- نحن أشرف من أشرف بني آدم ، وكل واحد يحفظ لسانه !
واهتر المخبر . . انحنى لا شعورياً أمام العينين الجميلتين المتنمرتين ، وأحسست أنه يتملقها بنظراته .

• • •

ونحن قابعون في الظلام جاء « سيد » شقيق أمينة . . لست أدري من أين جاء ؟ ولم أكن أعرف أن لها شقيقاً . . شاب طويل نحيف حاد التقاطيع ضيق العينين ، فوق العشرين بقليل . . بوجهه وعنقه آثار ندوب وخدوش يرتدى قميصاً أبيض وينظرون أسود . . عرفت - وبساطة - أنه قضى مدة بالسجن ، لضربه شخصاً بمطواة ، وخرج في عفو عام ، بعد أن قضى نصف المدة ، وأنه يعيش بعيداً عن عائلته ، ولا تعرف له عنواناً ، وأنه جاء بالمصادفة البحتة ،

وعرف الخبر من أهل الحارة .

كان عصياً في حركاته . . تارة يحملق فينا بكراهية شديدة ، وتارة ينفخ ، ويشتم ناديه وأمه وأباها لأن أمانة تعمل خادمة في بيت وليس في مصنع كما يزعمون له ؟ وكلما حاولت ناديه الدفاع عن نفسها زار فيها بوحشية ، فيظهر عليها الهلع وتبتلع نصف كلماتها .

وحينما أسمعته المخبر « مرشحته » عن مقدرته على أن يضع العائلة كلها في السجن وأن النقود المسروقة تخص شخصيات لها خطورتها في البلد ، وأنه لن يقف مكثوف اليدين إن لم تظهر البنت - زام فينا قائلاً :

- سأحضرها ولو كانت في أمريكا ، ولاداعى للكلام الزائد !

وسكننا ولا سيما بعد أن عرفنا أن هذه هي المرة الثالثة التي يضرب فيها « سيد » شخصاً بمطواة .

• • •

غصت أبجولة الخيش بالنساء والأطفال ، وتشعبت الأحاديث ، وروى لنا المخبر طرفاً من مغامراته ، ناسياً أن التخفي في الظلام هو كل ما في خطته المركبة ! وغص الشارع الكبير القريب بعربات الكارو تجرها الحمير والحيل الهزيلة ، وركابها عائدون إلى بيوتهم ، وبدأت عربات القول ، بقدرورها التاريخية تنسحب في زحام شديد ، وألوانها التباينة تتابع كمربات قطار البضاعة . عرفنا الكثير - وبساطة شديدة - عن حياة التجمعين ، وأدق أسرارهم ، بما في ذلك أنهم جميعاً من الأسر التي لا يزيد دخلها عن عشرة جنيهات في الشهر ، لكن هناك ما يشبه الإجماع على أن الأيام القادمة ستكون أفضل ، وأن فرج الله قريب .

ثمة شخصان لم يكونا معنا . . سيد الذى يتركنا بمعدل مرة كل نصف ساعة ، ويدور على بيوت الأقارب والأصدقاء ، ربما يجد من يدله على مكان أمينة ثم يعود مقهوراً ، فيجلس فى صمت يجذب الأنفاس العميقة من سجائره ، ولا يفتح فيه إلا إذا شتم نادية ، أو نهر أحد الطفلين ؛ والأم التى تجلس متربعة وحدها فى الجانب الآخر من الكشك ، دون أن تحول رأسها عن راحتها ، كأنها تزيد المسافة بينها وبين هذا العالم غير المفهوم .

• • •

لم أحس به حين جلس بجوارنا فى الظلام . . رجل فىء فى حدود الأربعين يرتدى معطفاً أصفر ذا جيوب كبيرة من تلك التى يرتديها المقاولون فوق جلباب من الحرير . سمعته يقول : إنه يعرف المكان الذى تقيم فيه أمينة . . قال ذلك بلهجة بطيئة أحست معها أنه جاء للمساومة على شيء ما .

لم يرد بسرعة عندما هبت نادية وسألاه فى لفة عن مكانها . . تجاهلها تماماً والتفت إلى المخبر ، وكان يجاوره من ناحية ، ولا يوجد رجال غيره - باستثنائى أنا و«سيد» - من ناحية ، وقال له بلهجة بطيئة واثقة : إنه تحمل الكثير من الإساءات وإنه غير مستعد لتحمل أى إساءة جديدة هذه المرة ، وإنه مستعد أن يغفر ويسامح ويفتح صفحة جديدة ، ومستعد أيضاً أن يتغاضى عن إبلاغ البوليس عن مكانها لو أنهم عاملوه بما يجب من احترام .

صاح المخبر فى سيد ونادية بصوت عال يأمرهما بالجلوس لما رأهما يلحان على الرجل أن يجيرهما بمكان أمينة . . صيحة قوية مشحونة بالخبرة ، نبراتها تهدد بعاقبة البوح بشخصيته .

عم الصمت ، وريت المخبر كتف الرجل وقدم له نفسه على أنه من أعز

أصدقاء العائلة ، وعلى أتم الاستعداد لإجابة كل مطالبه نيابة عنها ، ووصفه بأنه من أصل طيب .

واهتر الرجل للشهامة التى قبول بها من جانب المخبر ، وفهمنا منه ، بعدثرة طويلة ، وتوريات لاحد لها - أنه سبق له أن تقدم للطلب يد أمينة لأخيه ، ورفضته بحجة أن أخاه متزوج وله ثلاثة أطفال ، ولم تحرك الأسرة ساكناً فى الضغط على أمينة ، مع علمها بمركز أخيه الذى يعمل « مقاولاً » فى أعمال السباكة المعيارية ، مفضلة عليه شاباً متشرداً فى بولاق يعمل فى أعمال غير ثابتة . . واختتم حديثه بأنه غير مستعد هذه المرة لرفض جديد .

وهب سيد واقفاً ، وشده من كتفه فى عنف حتى أوقفه ، وقال له بصوت عال جريح :

- دلى عليها حالاً ، وأنا أنفذ لك كل طلباتك .

وقف الرجل وهويلهت من الانفعال . . وضجت النساء والأطفال بلغط لاحد له . . وتطور الأمر بسرعة غريبة . . وخرجنا إلى الشارع الكبير وقد تجمع حولنا حشد من الناس . . وأوقف سيد عربة أجرة ، بالرغم عن سائقها ، وفتح الباب ، ودفع صاحب المعطف إلى داخلها فى عنف ، وركب بجواره وقال لنا :
- اركبوا بسرعة .

شدنى المخبر من يدى ، ووقف بى بجوار جدار يبعد عن الحشد وهمس لى :

- إلّا بولاق .

- لا أفهم .

- أنا مستعد أذهب معك إلى أى مكان . . إلّا بولاق !

- السبب ؟

- إلا بولاق !

لم أكن أعرف شيئاً عن بولاق ، إلا أنه الحى الذى تزعم ثورة القاهرة الثانية ضد الحملة الفرنسية .

- قل لى عن السبب ؟

- تحصل مشاكل لاحصر لها .

وجاء سيد يسألنا عن سبب تخلفنا ، فقال له الخبير إن ذهابنا بهذه الطريقة إلى بولاق واعتقالنا لفتاة فى مظاهرة - سيثير نائرة الحى الشعبى ، وستكون العواقب وخيمة . . وأقترح أن نفكر فى طريقة جديدة نذهب بها إلى هناك غير هذه الطريقة التى وصفها بأنها ممجية .

كورسيد قبضته ، وضرب بها الجدار المقابل فى عنف ، كأنه جن ، وصرخ فى الخبير صرخة عالية مرعبة :

- اركب . فركب !

* * *

دخلنا أزقة بولاق الطويلة والقصيرة والمقوسة واللولبية والدائرية . . ونجبل لى أننا هنا فيها ، فتذكرت تحذير الخبير . . ولمعت فى ذهنى فكرة أن الأمر لا يعدو أن يكون مؤامرة لاستدراجنا إلى « علقه » رائعة .

غاب عنا صاحب المعطف دقائق ، وعاد ومعه أربعة شبان أقوياء يرتدون البطلونات الكاكية ، وقال لنا : إنه اتصل - بطرقه الخاصة - بالمكان الذى تقيم فيه أمينة فعرف أنها ذهبت لقضاء شأن ما ، وستعود بعد قليل . . ورسم لنا « خطة » جديدة فحوأها أن نجلس على ثلاثة مقاهٍ حددها لنا لمراقبة الطرق التى يتوقع أن تمر منها عند عودتها : جلست أنا والخبير فى مقهى ، وجلس صاحب

المعطف ومعه اثنان من رجاله فى مقهى ، وجلس سيد ومعه اثنان فى مقهى .
كان المقهى الذى جلسنا عليه أنا والمخبر على ناصية أحد الأزقة ، بحيث لم
نكن نرى من مجلسنا المقهيين الآخرين . . واخترنا مقعدين أمام المقهى ،
احتلا - مع المائدة - ثلث الزقاق بالضبط .

فى أثناء شرب الشاى قلت لنفسى : أمينة بها جانب إنسانى عظيم ، لم تنس
أهلها فى سعادتها ، فأرسلت لهم شيئاً من « فضل الله » . . هى أحسن منك
ومن مدحت ومن عباس ! فنحن نأخذ من أهلنا ولانعطى ! وعلى أى
حال فإن اكتشاف السرقة أخرجك من حالة البؤس التى تملكك بعد صدمة
سعاد ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .

كانت الأزقة على ضيقها تنفس بالسابلة وبمختلف الأزياء . . الجلاب
والبنطلون الشارلتون والملاءة اللف والفساتين فوق الركبة . . وفوجئت بالمخبر
قلقاً فى جلسته فسألته :

- مالك ؟

وضع كوب الشاى على المائدة ، ورمشت عيناه الضيقتان :

- اسمع . . سيد يجب أن يكون قريباً منا .

- لماذا ؟

- ربما مرت البنت من هنا .

- فى هذه الحالة سنرسل فى طلب سيد .

- لا . . سيد يجب أن يكون بجوارنا .

- السبب ؟

- ربما مرت البنت من هنا !

- قلت لك في هذه الحالة سترسل في طلب سيد .
- لا ، ويجب أن يحضر من الآن .
- وكيف عرفت أنها ستمر من هنا ؟ . . لم لا تمر من الرقاق الذي يجلس فيه سيد ؟

- احتياطات .
- نطق كلمة « احتياطات » بطريقة خاصة تشعرك أنك أمام أحد العالمين بيوطن الأمور .
- أنت خائف ؟
- أنا لا أخاف أحداً . . لكن لا تنس أنك في بولاق .
- أغاضني طريقته في نطق اسم الحى . . قلت له في انفعال :
- وما بولاق ؟
- لا تتصور ما يمكن أن يعملوه فينا لو رأونا نملك امرأة من عرض الطريق !

- لكنني أبحث عن حقى .
- أهل بولاق ناس جدعان .
- انفعلت أكثر . . انفجرت فيه :
- أنا من مواليد « الأنفوشى » . . في الوقت المناسب أخلع القميص والفانلة ، وأقف بالبطلون ، وأسحب المطواة ، وأضرب بالروسية ، وأحياناً أشخر !

- حديق في وجهي بدهشة شديدة ، وشرعت شفتاه في الاستعداد لبسمة ساخرة . . أنا في نظره شاب نحيل صحتي متوسطة ، أطالب بوقف إطلاق

النار ، بعد أول لكمة .

بسط يده على المائدة وقال لى فى مجاملة رقيقة :

- أنت على العين والرأس . . وبصراحة واضح جدا أنك رجل جدع وتأكل عشرة !

ثم هب واقفاً وهو يقول فى خشونة ويتجه إلى الزقاق المجاور :

- لكن بعد إذذك أناذى « سيد » !

أدريت رأسى ناحية اليمين أهدق فى ظهره الذى ينحنى أعلاه قليلاً إلى الأمام وبقعة ماء - أوروبما زيت - تلوث إحدى كفتى قميصه الأزرق ، وهو ينحنى فى الزقاق الأيمن .

أدريت عنى ناحية اليسار لأجد أمامى « أمينة » وجهاً لوجه . . فى البداية خيل لى أننى أحلم . . ترتدى فستاناً سماوياً رائعاً ، وتعقص شعرها فى شكل وردة مقلوبة وفى يدها حقيبة أنيقة فى لون الفستان .

لم أعرفها لأول وهلة . . بدت وقوراً وفاتنة أكثر مما يجب ، فتوقفت عينائى على وجهها طويلاً أستمتع بالوجه الفاتن دون أن يخطر ببالى - فى البداية - أنها أمينة ! بعد ثوان ربما زادت على العشر قلت لنفسى أين رأيت هذا الوجه من قبل ؟ ثم دوى فى رأسى الصوت الضخم . . أمينة . . أمينة .

كنت أنفخ - عند جلوسى على المقهى - أننى سأهجم عليها لحظة أن أراها ، وألوى ذراعها ، وأصرخ : « اللصة . . اللصة » لكن الذى حدث هو أننى وقفت بالطريقة نفسها التى أقف بها عند رؤيتى لصديق عزيز لم أره منذ زمن !

تقدمت نصف خطوة أعترض طريقها - ولم تكن قد رأتنى بعد - وأنا أمد

لها يدى بود حقيقى :

- إزيك بأمانة !

مهما نسيت من مواقف وأزمات وأفراح ولحظات سعادة ولحظات شقاء -
فلن أنسى ما حيت ذلك التعبير الذى ارتسم على وجهها لحظة أن وقع بصرها
على ويدى ممدودة وأنا أقول فى لطفة حقيقية :

- إزيك يا أمانة !

لم تهتز أو تتزعج أو يبد عليها أقل اضطراب . . ابتسمت تلك الابتسامة التى
لم أر مثل مرارتها ، لكنها هذه المرة ممزوجة بشحنة هائلة من العتاب . . أسبلت
أهداب عينيها ورفعتها قائلة فى عتاب :

- كنت تأخرت . . ولو ساعة !

قالت ذلك بصوت خافت جداً وضعيف ومرهق وحرارة إنسان يعاتب
إنساناً عزيزاً عليه . . ولم أفهم معنى ما قالته إلا فيما بعد ، وإن كنت قد
أحسست به . . وللحظة تملكنى شعور بالذنب لأننى أفسدت شيئاً ما كانت
تدبره ، وكان يجب أن أوجل حضورى . . لكننى تماكنت نفسى سريعاً ،
وتذكرت أن نقودى قد ضاعت ، وأننى أمام اللصة التى سرقها !

- تعالى ورائى .

ألقيت ببضعة قروش فى صينية الشاى ، وسرت أمامها بمقدار نصف
خطوة ، وسارت بجانبى فى هدوء مستسلم دون أن تنبس . . الناس يسرون -
فيا شبه الزحام - عن يميننا ويسارنا ونحن نتدافع معاً بالمناكب دون أن نسترعى
نظروهم . . فقط تظهر لمعة خفيفة فى عيون الرجال كلما وقعت أنظارهم على جه
أمانة . . لمعة مندهشة متملقة ومحبة ، لكنها سرعان ما تختفى طبقاً للقانون غير

المكتوب ، لأنها تسير بجوار رجل . . وتفاديت من شخص كدنا نصطدم معاً فوقعت عيني على وجهها . . كان رقيقاً وهادئاً وإن شملته مسحة من الهم ! في نهاية الزقاق التقينا بالخبر قادمًا نحونا ومعه (سيد) . . كأننا يختلفان فيما بينهما على مجيء سيد . . سيد نفسه غير راض عن ترك مكانه ، لأن رفاقه لا يعرفون أمينة بالنظر . . حين اقترب منا ووقع بصره على وجه أمينة ، وثب نحوها وثبة عظيمة ودار عليها بذراعيه ، كأنه اكتشفها مصادفة تسير بجوارى في الطريق . . وأطلق صيحة عالية - كمن أصابه مس - وقال لها يا بنت الكلب ! وفي لمح البصر تجمع حولنا العشرات . . كلهم يزعمون حولنا ونحن نسرع الخطى ؛ لنصل إلى « شارع ٢٦ يوليو » . . فوجئت بصاحب المعطف - الذي جاء هو ورجاله - يغرقاه في بلاهة ، وبتوه ويضيع هو ورجاله في الزحام . . المخبر انكمش في نهاية الزحام لا ينس بينت شفة لكيلا يكتشف أحد أنه معنا ! . . رجل أعور طويل يرتدى جلباباً أبيض بياقة منهذلة ، يزجر وعمرض المتجمهرين علينا ، ويردد : « الشرف غالى يا جدعان .. الشرف غالى » دون أن يعرف عنا أو عنها أى شيء !

كان طويل العنق ، رفيعة ، كالديك العجوز منحول الشعر . . صرخ في وجهي قائلاً ، وعينه الوحيدة ت برق :

- إن لم تركها وتذهب فوراً أشرحك ! .

ركبني روح التحدى . . تذكرت موقفاً مماثلاً في « الأنفوشي » عندما كنت في الثامنة عشرة ، وغازل أحدهم فتاتي . . تحدث الرجل الأعور ، ودفعته بعيداً عني ، واقتربت من « سيد » أساعده في الإمساك بأمينة ولا سيما أنني رأيت الكثيرين يدورون حوله ، ويزعمون في وجهه ، مهددين بذبحه إن لم يتركها !

فجأة رأيت نفسى مشدوداً إلى الخلف فى قسوة . . حتى بعدت عن أمينة وسيد قرابة ثلاثة أمتار . . صحت فيمن شدنى بأبنى رجل مهم جداً فى الدولة : وأنى سأقلب الدنيا كلها فوق رؤوسهم (فيما بعد طبعاً !) ، ولكنه لم يعرنى انتباهاً . . وتقدم منى رجل قصير منكوش الشعر وريت كتنى قائلاً فى ود : « سعادتك تكون مطمئناً جداً ، وأنا سأخلص لك موضوعك » ، ثم أدخل يده فى جيبى ، ولما لم يخرج معه غير المنديل ، رماه أمامه فى تأفف ، وحدجنى بنظرة احتقار وابتعد !

كان سيد يدور على أمينة بذراع ويدفع من حوله بالذراع الأخرى . . صياحه أعلى من صياحهم وتحديه لهم يفوق تحديهم له . . لم تستطع كثرة الأيدي الممدودة حوله أن تقلتها منه . . كلما نجح أحدهم فى إفلاتها قفز ودفعه بعيداً ، ودار عليها بذراعه وهو يصرخ : « أختى وأنا حرّ فيها » . . أمينة لم تكن تفعل شيئاً غير البكاء والاستسلام التام لذراع أخيها . . بل كانت تدور بذراعتها حول كتفه لتساعده فى الإمساك بها . . صاحب المعطف ورجاله والمخبر - لم أر منهم أحداً عليم الله . . صياح يصم الآذان (وشارع ٢٦ يوليو) لا يريد أن يظهر . . وبدأ التردد على الكثيرين حين رأوا تصميم سيد . . كلمة « أختى » جعلت بعضهم يشك فى الأمر ويتوقف . . تنهت إلى شاب وسيم يرتدى قميصاً أحمر ، وينظرون رعاة البقر ، يدافع عن سيد ويمنع الآخرين عن الاقتراب منه ويلصق ظهره بأمينة . . خمنت أنه قريبها أو ربما صديق سيد جاءت به المصادفة .

تكاثر عدد الواقفين على الحياد ، وظهر المخبر . . سمعته يخاطب رجلاً طويلاً عليه قميص أسود عرفت أنه « مخبر » من أبناء الحى . . قال له : أنا مخبر ومعى

البك . . . نطق كلمة « البك » وهو يشير ناحيتي . . . سرت مهمة في الجموع بأنني ضابط بوليس . . . وتوقف الكثيرون عن مهاجمة سيد ، وإن لم يمنحوا غيرهم من مهاجمته . . . ولم يكف الرجل الأعور ، بعنقه الطويل الرفيع - من شن الهجمات ، والتحريض علينا بمحاسة غريبة . . . وتقدم مني شابان أنيقان مداً لي بطاقتيهما الشخصية وقال لي أحدهما :

- نحن طلبة في الجامعة . . . خذ البطاقات ، سندافع معك عن البنت .
وداراً فعلاً حول سيد . . . وهروا أحدهما إلى شارع ٢٦ يوليو ، الذي اقترب منا ، واعترضاً طريق سيارة أجرة ، وصاحا بنا : « اركبوا » فاندفعنا نحوها . . . لكن الرجل الأعور قاد هجوماً ناجحاً ، بجناح من رجاله ، وهاجموا سائق العربة صائحين وهم يدقون على سقفها في عنف : « امش يا حمار » فلاذ بالفرار !

هجم الشاب الذي يرتدى بنطلون رعاة البقر ، وأمسك بالرجل الأعور من ياقته الخلفية ، وشده إليه ، ثم دفعه بعيداً في عنف ، والآخر يتطوح ويردد كلمة « الشرف » . . . وصرخ المخبر الطويل وطلب من كل واحد أن يذهب « إلى حال سبيله » وإلا اضطر إلى طلب قوة من قسم البوليس ، فانضم إلينا عدد من الواقفين على الحياد . . .

وفجأة ظهر صاحب المعطف ، ودار برجاله حول سيد وأمينة وعُعلن على الملأ أنه يسيطر على الموقف تماماً ، وأنه مستعد لإراقة الدماء ! . . . وقام الرجل الأعور بهجوم أخير ببقية قلوبه ، وحاول أن يخترق حائط صاحب المعطف ليصل إلى القلب ، لكن قواته كانت أضعف من أن تصل . . . ونجح أحد الطلبة في إيقاف عربة أجرة جديدة ، فأركبنا أمينة بعد « معافرة » وركبنا معها أنا وسيد

وطلبنا من سائقها أن ينطلق بنا بأقصى سرعته . . ونجح الرجل الأعور في سحب
الذين يمسكون به ، وأدخل رأسه من نافذة السيارة ، وقال لى بصوت جريح
مهموم :

— معلش . . لكن أنا وراك والزمن طويل !

• • •



فتحت حقيبة أمينة ، ونحن في السيارة ، فوجدت بها ثلثمائة وخمسة وستين جنيتها وبضعة قروش . . وطلب مني سيد أن نذهب إلى بيتهم ، وأبدى استعداداه لفعل أى شىء أطلبه منه ، وتهدج صوته وهو يقول : « استر علينا الله يستر عرضك » ولم أكن في حاجة إلى طلبه .

حين وصلنا أمام الكشك تجمع حولنا الجيران ، فطلب سيد - في غضب - أن يذهب كل إلى حاله ، ففارقوا صامتين . . ورفعت الأم رأسها تنظر إلينا باستغراب دون أن تتحرك في جلستها .

لم نجد شيئاً نجلس عليه في الحجرة الداخلية فاضطررنا إلى الجلوس على الأجرة المفروشة ، بعد أن رفع « سيد » الطفلين النائمين ووضعها فوق السرير المائل ، بجوار طفل رضيع نائم .

ووقفت فوق العتبة الفاصلة بين الحجرتين - الصبية التي تجلس في الكشك ، تنظر إلينا بعينين دهشتين ، وتنظر إلى أمينة المنكشة في ذلة باستغراب !

ودخلت علينا الأم تلهث لبدانتها . . تقدمت من أمينة ، وألقت بنفسها فوقها ، ودارت عليها يديها وضمتها في قوة ، كأنها تريد أن تدخلها في بطنها من جديد ! وأجهشت في بكاء حار مؤلم وجسدها بهتز في عنف ، ولا يفهم من كلماتها غير : « بنتى . . حبيبتي . . تعالى في حضنى ! » .

مضت تحتضنها ، ثم تمسكها من كتفها ، وتبعدها عنها ، وتنظر إليها بإيمان ، كأنها لا تصدق أنها هي ، ثم تعود لتحتضنها ، وتقول لها : لن نزوجك بالرغم عنك أبداً يا حبيبتي ، وليذهب « المعلم رشاد » إلى ألف داهية ! وفوجئت بها تستدير ، وتدور بيديها حول عنق وتقول باكية : « ربنا يخليك لأملك يا بنى . . هات راسك » . . في هذه اللحظة دخل المخبر وصاحب المعطف والشاب الوسيم الذى يرتدى بنطلون رعاة البقر . . وهبت الأم واقفة في نشاط غريب ، وانحنت تمسك بأيديهم ، تحتضنها ، وتقبلها ، دون أن ينتبهوا ، وتردد وهى تتشجج : « هاتوا أيديكم . . أبوسها . . ربنا يخليلكم . . أمينة رجعت » .

وجاءت نادية . . وضعت إحدى يديها فوق رأسها ، ووقفت صامته للمحطات . . العيتان الواسعتان تدوران في الحجرة وألوان قوس قزح تتألى عليها ، كأنوار النيون الملونة ، تلوح على البعد ، يطفأ لون ليظهر لون . تقدمت من أمينة ووقفت بجوارها . . فجأة رفعت يديها إلى أعلى وولولت قائلة إنها ستترك لها البلد والعالم كله ؛ بسبب المصائب المتتالية التى تجلبها عليهم ، وربما فكرت بسببها في الانتحار ! عادت بعدها لتجلس بجوارها وتضع يدها على كفها وتلصقها بصدرها قائلة بصوت باك : « إزيك يا أمينة ! » .

كانت أمينة تبكى في صمت . . رأسها منكس ، وكفها متهللان ، وحمرة خفيفة غزت سمرتها ، مع لمعة الدموع على وجنتيها ، فتغيرت تماماً . بدت فتاة أخرى مختلفة لها جمالها الخاص الذى يخالف جمال أمينة ! صرخ سيد في أمه وأختيه وطلب أن يخرج من الحجرة ويذهبن جميعاً في داهية ، فسارعن بالخروج .

اقترب من أمينة « يحقق » معها عما فعلته ببقية النقود فتملكتها رعدة دهشت لها . . . وبعد لعنة طويلة ، ونظرات خائفة ، قالت : إنها اشترت ملابس لنفسها ، ودوائر ذهبية ليديها ، وأطباقاً « صينية » وأشياء من هذا القبيل . . . وعرفنا أن عقد القران كان مقررأ له بعد عودتها من الحلاق ، لكنها وجدته مزدحماً ، فذهبت تبحث عن آخر ، فكان لقائنا بها .

عرفت الآن معنى كلمتها المعاتبية : « كنت تأخرت . . . ولو ساعة ! » فتمنيت لو تأخرت .

• • •

التفت سيد إلى الشاب الذى يرتدى بنطلون رعاة البقر وصرخ فيه :

- تضحك على أختى يا جبان ؟

رد عليه الآخر مزجراً :

- اخرس قطع لسانك !

ووقفنا بسرعة غريبة ، وتلاكما فى عنف ، وتناطحا برؤسهما ، وولولت نادبة وأختها فى الحجرة الخارجية ، واستيقظ الطفل الرضيع صارخاً ، وحلنا بينهما . . . واندفعت الأم إلى الحجرة واحتضنت الشاب الآخر وقالت لابنها فى انفعال :

- صلاح أحسن منك . . . ابعد أنت وأبوك عنا . . . صلاح أحسن منك .

تركزت نظراتنا على « صلاح » الذى شد معه الأم إلى ما بين الحجرتين ، وقال يخاطب نادبة فى حرارة :

- والله العظيم . . . والنعمة الشريفة . . . أنا لا أعرف حاجة عن الفلوس المسروقة ، وأمينة أخذت منى تسعة وعشرين جنيها لتجهز نفسها .

ردت عليه نادية في حماسة :

- أصدقك .. هي بنت حرام ، تضحك على الأبالسة !
ثم دخلت الحجرة ، تخوض في زحامها ، لتحمل رضيعها الذى لم يكف
عن الصراخ ، على حين انشغل صلاح فى مسح الدم عن شفتيه ، وراح سيد
يتحسس حاجبه المتورم ويضغط على فكيه كأنه يطحن أسنانه !
كان صاحب المعطف الأصفر ، يوجه نظرات كارهة للأُم ، ثم يستدير ينظر
إلى سيد فى ضراعة كأنه يستنجده .. وأحس سيد بنظراته ، فالتفت إلى صلاح
وقال له فى غيظ :

- وافرض أنك لا تعرف .. فكيف تتزوج أختى من غير علم أهلها ؟ ..
هى مقطوعة ؟

أجاب صلاح :

- هو الحل الوحيد .
وقف سيد صارخاً :

- حل وحيد يا جبان ! بعيد عن شنبك !
ووقفاً من جديد ، لكننا حلنا بينهما قبل أن يتأسكا ، وجلس كلاهما يلحق
جراحه .. وقال صاحب المعطف لسيد :
- أنت عند كلمتك يا سيد .

رد عليه فى قوة :

- طبعاً .. أنا أعطيتك كلمة رجال .

ثم التفت ناحيتى وقال فى انفعال :

- على العموم .. الأمر فى يدك .. أى شئ تريده أنا مستعد لتنفيذه . هنا

تنحنح المخبر وقال ببطء وهو يقلب يديه وينظر إليها :

- طبعاً القسم .. لا بد .. يعرف .. ما حصل .

التفت إليه سيد في حدة ، وبغيظ ، دون أن يقول شيئاً .. ثم أدار عنقه وراح يمدق في وجهي .

اقتربت نادية ، وطفلها الرضيع على صدرها ، ووقفت بين الحجرتين ، تسلط على وجهي نظرة مستطلعة مكومة الأنفاس .. صلاح التفت ناحيتي ثم أدار عنقه بسرعة وطأطأ رأسه ، وانشغل في مسح الدم عن شفتيه .. استيقظ الطفل الكبير ، فوق السرير ، وجلس يحلبابه ذى الخطوط البدائية ، يحملق فينا باستغراب ، فقلت للمخبر :

- لماعدت لتفتيش دولاب الملابس عثرت على النقود .

تنهد سيد بصوت مسموع ، وجلس صلاح على إحدى ركبتيه ، وقالت نادية وهي تتراجع بطفلها :

- روح يا شيخ .. إلهي يريح قلبك كما ريمحت قلبنا !

فتذكرت سعاد ، وعادت لي حالة البؤس التي كانت تلازمي قبل اكتشاف السرقة .. وتمنيت لو لم أعر على أمينة لأهرب في البحث عنها من نفسي !

* * *

توقفت في سيارة الأجرة أمام بيتنا . . كانت أمي تطل من النافذة حين رأته . . قالت لي : إنها كانت تصلي ، وفجأة هتف بها هاتف بأنني في الطريق إليها ، فدت عنقها من النافذة لترى العربة تدخل في الشارع . . تعانقنا طويلاً وأمعنتي الكلمات الطيبة التي لا يسمعها الإنسان إلا من أمه . . وعرفت منها كل أخبار « البلد » :

سعاد تزوجت وقضت مع عريسها بضعة أيام في فندق « سيسل » . . سعاد بنت أم سعاد ، الشحاذة بنت الشحاذة - هكذا قالت أمي - أوصَلها الزمن المعكوس إلى أن تقم مع عريسها - الشحاذ هو الآخر - في فندق الكبراء ! قضيت يومين بالإسكندرية راقداً في الفراش . . لم أزر أحداً من الأصدقاء ولم يعلم أحد بوصولي غير جيراننا الأقربين ، وغير أخوتي التي جاءت بأطفالها من « محرم بك » لتعيد ما قالته أمي عن « أصل » سعاد . . حتى أخوتي لم أراه إلا قبل مغادرتي الإسكندرية بساعة واحدة .

وفي القاهرة وجدت في انتظارى حشية ووسادتين وبضعة ثياب نسائية ، بعضها سماوي ، والكثير من أواني الطبخ الجديدة . . وقال لي عباس : إن شقيق أمينة ومعه شاب آخر - عرفت من مواصفاته أنه صلاح - جاء بهذه الأشياء وذهب . . وقال يدافع عن أمينة إنه يعتقد أنها لم تكن تنوي السرقة . . كومت الملابس على السرير لفصلها ويبدو أنها فتحت صوان الملابس ؛ لتبحث

عن ملابس أخرى متسخة فعثرت على النقود « والشيطان شاطر » !
مرت لى عشرة أيام بالقاهرة لا أفعل شيئاً غير أن أهتم على وجهى فى
الطرق . . ضقت بالحانات ودور اللهو ونساء عباس ومدحت ففضلت أن
أهيم فى الطرق ! أركب سيارة أجرة وأطلب من سائقها أن يسير لى على غير
هدى . . مائة جنيه أنفقها فى أشياء تافهة خلال الأيام العشرة . . وعرفت أننى
لو استمررت على هذه الحال ، فستبخر منى بقية النقود قبل شهر واحد ، لكننى
لم أهتم . . إرادتى كانت عاجزة تماماً ولا أدرى بالضبط ماذا أريد ؟

فكرت للحظة أن أبعث بقية النقود إلى أمى - التى لم أخبرها عن واقعة
السرقه - لكننى عدلت . . حاولت أن أقيم علاقة عاطفية مع فتاة لكننى
وجدت نفسى أنزع إلى الجنس كنوع من الانتقام من الجنس الذى تنتمى إليه
سعاد ! وقلت لنفسى : إننى سأصبح عدو المرأة رقم واحد ، ولن أذخر جهداً
فى التفريق بين أى حبيبين يوقعها سوء الطالع فى طريقى .

ولما رأيت مدحت قد نجح فى بيع ثلاثة أفدنة ، وشرع فى الاستعداد للزواج
من ناهد ، شرعت بدورى فى تدبير خطة للحيلولة دون إتمام هذا الزواج . .
لكن « عباس » سبقنى وحاول أن يثنى مدحت عن عزمه ، فلقى منه تردداً بين
الإقدام على الزواج والإحجام عنه . .

وفى ركن الحجرة طالعتنى أشياء أمينة . . حقيبة اليد السماوية الأنيقة ،
تربع على قفها كأنها تسند يدها على خدها وتأمل عالمنا هذا غير المفهوم . . أمينة
كانت صديقة مع نفسها . . أحببت « صلاح » فغامرت من أجله . . أربها
تهديدات أهلها ، لكنها لم تبهرها نقود « المعلم رشاد » كما بهرت سعاد .
غيب أمينة الوحيد أنها لم تدرس قانون البلاد كما درسه السيد شريف . .

كانت على بعد خطوات من حضان حبيبا ، فجئت أنت تنق كطائر الشؤم
وخرت عشيها . . ثم من يدريك أن « سعاد » نفسها لم تقع تحت تهديد يشبه
التهديد الذى تعرضت له أمينة ؟ . . هل نسبت انفجارات أمها العفوية تعلن
عن سوء طالعها وزوجها الخامل الذى لم « يقفز » كما قفز « المقدم » السيد
شريف ؟ . . ما الذى يدريك أن ركناً ما من أركان قلب سعاد لا يجيم عليه
الظلام الآن وينص عليها عشيها ؟ . . هل تذكر اليوم الذى قالت لك فيه :
إنها مستعدة أن تسلمك نفسها إذا أردت أنت ؟ ذلك لأنها تثق فيك وأنها رهن
إشارتك ؟ . . هل تذكر الحكايات اللطيفة التى كنت تحفظها كى تروى لها ،
فتفاجأ بالحكايات نفسها تروى لك بعد أن حفظتها أو شيئاً قريباً منها ؟ . . هل
تذكر الساعة من النهار التى كنتم تتفقان على أن تخبرا بعضكما بعضاً بما كنتم
تفعلان فيها ، فتفاجآن فى أكثر الأحيان بأنكما كنتم تفعلان شيئاً واحداً
تقريباً ؟ . . ساعة واحدة كانت كافية للجميع بين صلاح وأمينة ، فإذا
لوتأخرت ولو ساعة ؟ . . هأنذا قد فرقت بينهما ووجدت النقود فإذا فعلت
بالنقود . . تبخرت منك فى دور اللهو وفى الحانات بحجة أنك « مصدوم » ولا بد
للمصدوم من أن يفعل هذا . . أليس كذلك ؟ . . أعتقد أنه حان الوقت لكى
تعترف فيه لنفسك بأنك تافه !

• • •

الأم تجلس فى الكشك ، مشغولة ببيع سيجارتين لرجل عجوز مجلبب . .
اتسعت عيناها حين لمحتنى ، وخرجت من الكشك بسرعة ودارت يديها حول
عنقى تضمينى إلى صدرها . . لم تنطق بكلمة واحدة . . ضمتنى وعادت
فأطلقتنى ووقفت تتأمل وجهى وعيناها تطرفان وعلى وجهها تعبير فرح بدائى

مزوج بالبلاهة . .

ابتها الصغرى رأتنا فهولت إلى البيت في قفزات مرحة ، وعادت ومعها نادية . . أمسكتني نادية من يدي بيديها الاثنتين ومالت إلى الوراء وصممت على أن « أتفضل » . . وأرسلت في طلب أبيها ، وكان يوم جمعة فجاء الرجل . فوجئت به شخصية جديدة تختلف تماماً وتلك الشخصية الضعيفة المتخاذلة التي رأيتها يوم المرققة . . رحب بي في شهامة ، وشدني من يدي في ثقة ، وأحضر ثلاثة مقاعد قش من المقهى القريب . . جلسنا خلف الكشك ، وأمامنا برميل مقلوب ، عليه صينية وزجاجة كوكاكولا ، وعلبة سجائر مفتوحة ، وموضوعة « تحت أمري » .

جاء الطفلان ووفقا لبالتي صامتتين ، ولما شجعتهما ، دخلا في حضني في صمت وكأنني أحد أفراد العائلة الغائبين . . وتربعت الأم أمامنا على جوال مفروش ، تنظر إلينا باسمة . . وقالت لي نادية : إنها « زعلانة » مني جداً لأنني منذ « فترة طويلة » لم أزرهم . . ووضع الأب ساقاً على ساق ، ومضى يحدثني في ثقة ، عن خطته في إرجاع الأرض العربية من إسرائيل . . من راية أن نسارع باحتلال إنجلترا أولاً ، لأن « الإنجليز » ناس مثل ألسوس ، وطالما هم موجودون ، فلن تنتهي مشاكلنا ! وكانت له آراء كثيرة من هذا القبيل في القضايا العالمية ، لكن الغريب - كما قال - إن أحداً لا يأخذ بها !

وسألته عن « سيد » فقال لي : إنه سافر إلى محافظة « مطروح » في محاولة للتسلل إلى ليبيا بعد أن حالت « السوابق » دون استخراج تصريح له . . وقال لي : إن « سيد » يشكر فيك طول الوقت ، ويقول : إنه لن ينسى جميلك . .

وبعد منححة طويلة وحرج - سألته عن أمينة . . فقالت نادية وكأنها تنفس الصعداء :

- ربنا أراحنا منها .

ولما هززت رأسي مستفسراً قالت :

- زوجناها .

- من . . صلاح ؟

- المعلم رشاد !

بضعة قراطيس ورقية تلتحرج على يسار الكشك ، تصدر عنها أصوات كالخشرجة ، تصاحبها أصوات طبول ودفوف . . في أعلى الجدار المقابل ، ما يشبه الشاشة السينمائية ، تقف أمينة بثياب العرس البيضاء بجوارها المعلم رشاد بمعطفه الأصفر يفتل شاربه وحولها نسوة يزغردن وشموع . . في الخلفية نساء متشحات بالسواد يلطمن الحدود ، وشفنا أمينة تقتربان شيئاً فشيئاً ، تنفجران لتقولاً لي : وكنت تأخرت . . ولو ساعة ! ه وصوت المتشحات بالسواد يملأ الجدار بعد اختفائها التدريجي يتوسطهن السيد شريف .

تمت

رقم الإبداع	١٩٨١/١٧١٣
الترقيم الدولي	٩٧٧-٧٣٤١-٤٩-٠
ISBN	

١/٨٠/٧٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)